

مختارات من

مدارج السالكين

بين منازل

إياك نعبد وإياك نستعين

للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب
ابن قيم الجوزية
(٦٩١هـ - ٧٥١هـ)

اختصره

أ.د. أحمد بن عثمان المزيد

أستاذ الدراسات الإسلامية. جامعة الملك سعود




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المكتبة الرابعة للأسرة
(٢)

مختارات من
مدارج السالكين
بين منازل
إيّاك نعبد وإيّاك نستعين

للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب
ابن قيّم الجوزيّة
(٦٩١هـ - ٧٥١هـ)

اختصره
أ.د. أحمد بن عثمان المزيد
أستاذ الدراسات الإسلامية. جامعة الملك سعود







الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م



المملكة العربية السعودية - الرياض

المقر الرئيسي - الروضة - ت: ١١٢٣١٣٠١٨

ت: ١١٤٧٩٢٠٤٢ (٣ خطوط) - ف: ١١٢٣٢٢٠٩٦

الموقع الإلكتروني	www.madaralwatan.com
البريد الإلكتروني	pop@madaralwatan.com madaralwatan@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، **أما بعد،**

للأسرة في الإسلام مكانة رفيعة ومنزلة عالية، ففي الأسرة الناجحة المطمئنة السعيدة ينشأ ويتربى جيل المستقبل الذين هم عماد الوطن وبناة الغد، وعلى أكتافهم تنهض الأوطان.

فصلاح الأسرة وسعادتها يقوم على تقوية الوازع الديني بالتركيز على تنشئة الأسرة على التربية القيمية النبوية، وعلى رأسها قيمة إفراد الله بالعبودية خوفًا ورجاءً ومحبةً، وتعظيمه سبحانه ومراقبته، وقيم الإخلاص والصدق والأمانة والبرِّ والإحسان والعفاف، وعلى تعلُّم كتاب الله سبحانه، وسنة نبيه ﷺ، والاقتداء به عليه الصلاة والسلام في عقيدته وعباداته ومعاملاته وأخلاقه.

وقد يتعرض بعض أفراد الأسرة في وطننا المبارك المملكة العربية السعودية وغيرها من بلدان العالم الإسلامي، إلى منزلقات وانحرافات: فمن تطرف وغلو إلى إفراط وتفريط، ومن مشكلات أخلاقية وأمنية، إلى صعوبات اقتصادية واجتماعية.

وإن من أعظم ما يتُصدى به لهذه الانحرافات والمشكلات العودةَ إلى كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ بفهم سلف الأمة، قال الإمام مالك: «ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها».

ومن توفيق الله أن يسَّر لنا إصدار سلسلة مكتبة الأسرة المستقاة من كتب سلفنا الصالح، وقد دفعنا للمضي قُدمًا في هذه السلسلة المباركة حسن تلقِّي القرّاء الكرام لمكتبة الأسرة الأولى والثانية والثالثة.

وقد ضمَّت **المكتبة الرابعة للأسرة** بين دفتيها الكتبَ الستة التالية:

١- **مختصر الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية، لعبد الرؤوف المناوي، ويليه: مختارات من الأحاديث القدسية، مرتبة على الأبواب الفقهية.**

٢- **مختصر مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية.**

قال ابن القيم: «فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تقتبس إلا من [مشكاة القرآن]، ونحن ننبه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب، وعلى بعض ما تضمنته هذه السورة، وما تضمنته من منازل السائرين، ومقامات العارفين».

٣- مختصر الأذكار من كلام سيد الأبرار، للنووي.

قال النووي: «وقد صنف العلماء ﵏ في عمل اليوم والليلة والدعوات والأذكار كتبًا كثيرة معلومة عند العارفين، لكنها مطولة بالأسانيد والتكرير، فقصدتُ تسهيل ذلك على الراغبين، فشرعت في جمع هذا الكتاب مختصرًا مقاصد ما ذكرته».

٤- مختصر كتاب تلبيس إبليس، لابن الجوزي.

قال ابن الجوزي: «بعث الله ﷻ محمدًا ﷺ فرفع المقابح وشرع المصالح، فسار أصحابه معه وبعده في ضوء نوره سالمين من العدو وغروره، فلما انسلخ نهار وجودهم نهض إبليس يلبس ويزخرف ويفرق ويؤلف، فرأيت أن أحذِّر من مكايده، وأدلَّ على مصايده».

٥- منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين، للسعدي.

قال السعدي: «هذا كتاب مختصر في الفقه، جمعتُ فيه بين المسائل والدلائل، واقتصرت فيه على أهم الأمور، وأعظمها نفعًا، لشدة الضرورة إلى هذا الموضوع».

٦- مختصر أدب الدين والدنيا، للماوردي.

قال الماوردي: «أعظم الأمور خطرًا وقدرًا وأعمها نفعًا ورفدًا ما استقام به الدين والدنيا، وقد توخيت بهذا الكتاب الإشارة إلى آدابها، وتفصيل ما أجمل من أحوالهما».

أما كتابنا «مدارج السالكين» فقد اعتمدنا في اختياراتنا من الكتاب على تحقيق عبد العزيز الجليل، فضبطنا نصه وفقراته، وأخليناه من الضعيف وما دونه، وذكرنا فيه من المنازل ما هو سهل المأخذ، قريب الحجة من الكتاب والسنة، مناسب لعامة القراء، وكان اختيارنا مقتصرا على كلام ابن القيم في صدر كل منزلة غالبا، مستثنين كلام الهروي وشرح ابن القيم له.

والشكر الجزيل والثناء الجميل لكل من ساهم وشارك ودعّم هذا العمل، والله نسأل أن يجعل هذا العمل عملا خالصا لوجهه الكريم!

أ.د. أحمد بن عثمان المزيد
أستاذ الدراسات الإسلامية - كلية التربية - جامعة الملك سعود
dralmazyad@hotmail.com



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والعاقبةُ للمتقين، ولا عدوانَ إلا على الظالمين، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريك له، ربُّ العالمين، وإلهُ المرسلين، وقيومُ السموات والأرضين، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بالكتابِ المبينِ، الفارقُ بين الهدى والضلالِ، والغيِّ والرشادِ، والشكِّ واليقينِ، أنزله لنقرأَهُ تدبرًا، ونتأملَهُ تبصرًا، ونسعدَ به تذكرًا، ونحملَه على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدِّقَ به، ونجتهدَ على إقامة أوامره ونواهيه، ونجتنيَ ثمارَ علومِه النافعة الموصلة إلى الله سبحانه.

سبحان الله! ماذا حُرِمَ المعرضون عن نصوصِ الوحي، واقتباسِ العلم من مشكاتِه مِن كنوزِ الذخائرِ؟! وماذا فاتَهم مِن حياةِ القلوبِ واستنارةِ البصائرِ؟! قنعُوا بأقوالٍ استنبطَتْها معاولُ الآراءِ فكرًا، وتقطعوا أمرَهم بينهم لأجلِها زبرًا، وأوحى بعضُهم إلى بعضٍ زخرفَ القول غرورًا، فاتخذوا لأجل ذلك القرآنَ مهجورًا.

أفيظن المعرضُ عن كتابِ ربه وسنةِ رسوله أن ينجوَ من ربه بآراءِ الرجال؟! أو يتخلصَ مِن بأس الله بكثرةِ البحوثِ والجدال، وضروبِ الأقيسة وتنوعِ الأشكال؟! أو بالإشاراتِ والشطحات وأنواعِ الخيال؟!

هيهات والله، لقد ظَنَّ أكذبَ الظنِّ، ومنَّتْهُ نفسُهُ أبينَ المحالِ!

وإنما ضُمنت النجاةُ لمن حكم هدى الله على غيره، وتزوَّدَ التقوى وائتمَّ بالدليلِ، وسلكَ الصراطَ المستقيم، واستمسك من الوحي بالعروةِ الوثقَى التي لا انفصامَ لها، والله سميع عليم.

وبعد: فلما كان كمالُ الإنسانِ إنما هو بالعلمِ النافع، والعملِ الصالح، وهما الهدى ودينُ الحق، وبتكميلِه لغيره في هذين الأمرين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣] أقسمَ سبحانه أنَّ كلَّ أحد خاسر إلا مَن كمَّل قوتَه العلمية بالإيمان، وقوتَه العملية بالعمل الصالح، وكمَّل غيرَه بالتوصيةِ بالحق والصبرِ عليه، فالحقُّ هو الإيمان والعمل، ولا يَتِمَّانِ إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما - كان حقيقًا بالإنسانِ أن ينفقَ ساعاتِ عمره بل أنفاسَه فيما ينالُ به المطالبَ العالية، ويخلصُ به من الخسرانِ المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآنِ وتفهمِه وتدبرِه واستخراجِ كنوزِه وإثارةِ دفائنِه، وصرفِ العنايةِ إليه، والعكوفِ بالهمَّةِ عليه؛ فإنه الكفيلُ بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصلُ لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقةُ والطريقةُ والأذواقُ والمواجيدُ الصحيحةُ كلُّها لا تُقتبسُ إلا مِن مشكاته، ولا تُستثمرُ إلا من شجراتِه.

ونحن - بعون الله - ننبِّهُ على هذا بالكلام على فاتحةِ الكتابِ وأمِّ القرآنِ، وعلى بعضِ ما تضمنَتْه هذه السورةُ من هذه المطالب، وما تضمنَتْه مِن الردِّ على جميع طوائفِ أهل البدع والضلال، وما تضمنَتْه مِن منازلِ السائرين، ومقاماتِ العارفين، والفرقِ بين وسائلها وغاياتها، ومواهبها وكسبياتها، وبيان أنه لا يقومُ غيرُ هذه السورة مقامَها ولا يسدُّ مسدها؛ ولذلك لم ينزل اللهُ في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلَها.

والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلي العظيم.

[فصل في اشتمال الفاتحة على أمهات المطالب العالية]

اعلَمْ أن هذه السورةَ اشتملَتْ على أمهاتِ المطالبِ العاليةِ أتمَّ اشتمالٍ، وتضمنَتْها أكملَ تضمنٍ:

- **فاشتملت على التعريف بالمعبود** تبارك وتعالى بثلاثةِ أسماءٍ، مرجعُ الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارُها عليها، وهي: الله، والرب، والرحمن. وبُنيت السورةُ على الإلهية، والربوبية، والرحمة، فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبنيٌّ على الإلهية، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة. والحمدُ يتضمَّنُ الأمورَ الثلاثة: فهو المحمودُ في إلهيته، وربوبيتِه، ورحمتِه. والثناءُ والمجدُ كمالانِ لِـجَدِّهِ.

- **وتضمنت إثبات المعاد**، وجزاءَ العباد بأعمالهم حسنها وسيئها، وتفرُّدَ الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكونَ حكمه بالعدل، وكلُّ هذا تحت قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

- **وتضمنت إثبات النبوات** من جهاتٍ عديدةٍ:

أحدُها: كونُه ربَّ العالمين، فلا يليقُ به أن يتركَ عبادَه سدًى هملًا لا يُعرِّفهم ما ينفعُهم في معاشِهم ومعادهم وما يضرُّهم فيهما.

الثاني: أخذها مِن اسم الله، وهو المألوهُ المعبودُ، ولا سبيلَ للعباد إلى معرفة عبادتِه إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: مِن اسمه الرحمن، فإن رحمتَه تمنعُ إهمالَ عبادِه وعدمَ تعريفِهم ما يَنالون به غايةَ كمالِهم.

الموضع الرابع: مِن ذكرِ يومِ الدين، فإنه اليومُ الذي يدينُ اللهُ العبادَ فيه بأعمالهم، فيُثيبُهم على الخيراتِ، ويُعاقبُهم على المعاصي والسيئاتِ، وما كان اللهُ ليعذب أحدًا قبلَ إقامةِ الحجة عليه، والحجةُ إنما قامَتْ برسلِه وكتبِه، وبهم استحقَّ الثواب والعقاب، وبهم قام سوقُ يوم الدين، وسِيقَ الأبرارُ إلى النعيم، والفجارُ إلى الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فإن ما يُعبدُ به الربُّ تعالى لا يكون إلا على ما يحبُّه ويرضاه، وعبادتُه وهي شكرُه وحبُّه وخشيتُه فطريٌّ ومعقولٌ للعقول السليمة، لكن طريق التعبدِ وما يُعبدُ به لا سبيلَ إلى معرفته إلا برسلِه وبيانِهم.

الموضع السادس: من قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فالهداية: هي البيانُ والدلالةُ، ثم التوفيقُ والإلهامُ، وهو بعدَ البيانِ والدلالةِ، ولا سبيلَ إلى البيان والدلالة إلا مِن جهة الرسلِ.

فصل [في اشتمال الفاتحة على الصراط المستقيم]

وذكر الصراط المستقيم مفردًا معرفًا تعريفين: تعريفًا باللام، وتعريفًا بالإضافة، وذلك يُفيدُ تعينَه واختصاصَه، وأنه صراطٌ واحدٌ، وأمَّا طرقُ أهلِ الغضبِ والضلالِ فإنه سبحانه يجمعُها ويفردُها، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فوحَّدَ لفظَ الصراطِ وسبيلَه، وجمعَ السبلَ المخالفة له.

وقال ابن مسعود ﷺ: «خطَّ لنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خطًّا، وقال: هذا سبيلُ الله، ثم خطَّ خطوطًا عن يمينِه وعن يسارِه، وقال: هذه سبلٌ، وعلى كل سبيلٍ شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»(١).

وهذا لأن الطريقَ الموصل إلى الله واحدٌ، وهو ما بعثَ به رسلَه وأنزلَ به كتبَه، لا يصل إليه أحدٌ إلا من هذه الطريقِ، ولو أتى الناسُ من كل طريق واستفتحوا من كل باب فالطرقُ عليهم مسدودةٌ والأبوابُ عليهم مغلقةٌ إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصلٌ بالله، موصلٌ إلى الله.

فصل [الصراط المستقيم هو صراط الله]

والصراطُ المستقيمُ: هو صراطُ الله، وهو يخبرُ أن الصراطَ عليه سبحانه، ويخبرُ أنه سبحانه على الصراطِ المستقيم، وهذا في موضعَينِ من القرآن: في «هود»، و«النحل»، قال في «هود»: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]، وقال في

---

(١) النسائي في الكبرى (١١١٠٩، ١١١١٠)، وأحمد (٧/ ٢٠٧).

«النحل»: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦].

وهو سبحانه أحقُّ مَن كان على صراطٍ مستقيم، فإن أقوالَه كلَّها صدقٌ ورشدٌ وهدى وعدلٌ وحكمةٌ، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وأفعالَه كلَّها مصالحُ وحكمٌ، ورحمةٌ وعدلٌ وخيرٌ، فالشر لا يدخلُ في أفعالِه ولا أقوالِه ألبتةَ؛ لخروج الشرِّ عن الصراط المستقيم فكيف يدخلُ في أفعالِ مَن هو على الصراط المستقيم أو أقوالِه! وإنما يدخلُ في أفعالِ مَن خرج عنه وفي أقوالِه.

فصل [الرفيق في هذا الطريق المستقيم]

ولما كان طالبُ الصراطِ المستقيم طالبَ أمرٍ أكثرُ الناس ناكبون عنه، مريدًا لسلوكِ طريقٍ مُرافِقُهُ فيها في غايةِ القلة والعزة، والنفوسُ مجبولةٌ على وحشة التفرد، وعلى الأنس بالرفيق - نبَّه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، فأضاف الصراطَ إلى الرفيقِ السالكِينَ له، وهم الذين أنعمَ اللهُ عليهم؛ ليزولَ عن الطالبِ للهدايةِ وسلوكَ الصراط وحشةُ تفردِه عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلمَ أن رفيقَه في هذا الصراطِ هم الذين أنعمَ اللهُ عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبِينَ عنه له، فإنهم هم الأقلُّون قَدْرًا وإن كانوا الأكثرين عددًا.

فصل [تعليم الله عباده كيفية سؤاله الهداية إلى الصراط المستقيم]

ولما كان سؤالُ الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب، ونيلُه أشرفَ المواهب - علَّم الله عبادَه كيفيةَ سؤاله، وأمرهم أن يقدِّموا بين يديه حمدَه والثناءَ عليه وتمجيدَه، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم: توسلٌ إليه بأسمائه وصفاتِه، وتوسلٌ إليه بعبوديته. وهاتان الوسيلتان لا يكاد يُردُّ معهما الدعاءُ.

فصل في اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم

التوحيدُ نوعان: نوعٌ في العلمِ والاعتقادِ، ونوعٌ في الإرادةِ والقصدِ.

ويسمَّى الأولُ: التوحيدَ العلميَّ، والثاني: التوحيدَ القصديَّ الإرادي؛ لتعلقِ الأولِ بالأخبارِ والمعرفةِ، والثاني بالقصدِ والإرادةِ.

وهذا الثاني أيضا نوعانِ: توحيدٌ في الربوبية، وتوحيدٌ في الإلهية.

فهذه ثلاثةُ أنواعٍ.

فأما توحيد العلم: فمدارُه على إثباتِ صفاتِ الكمالِ، وعلى نفيِ التشبيهِ والمثال، والتنزيهِ عن العيوبِ والنقائص.

وقد دلَّ[1] على هذا شيئان: مجملٌ، ومفصَّلٌ:

- **أمَّا المجملُ:** فإثباتُ الحمدِ له سبحانه.

- **وأمَّا المفصَّلُ:** فذكرُ صفةِ الإلهيةِ، والربوبيةِ، والرحمةِ، والملكِ. وعلى هذه الأربعِ مدارُ الأسماءِ والصفات.

فأمَّا تضمُّنُ الحمدِ لذلك: فإن الحمدَ يتضمَّنُ مدحَ المحمودِ بصفاتِ كمالِه، ونعوتِ جلاله، مع محبتِه والرضا عنه، والخضوعِ له، فلا يكون حامدًا مَن جحدَ صفاتِ المحمود، ولا مَن أعرضَ عن محبتِه والخضوعِ له.

وأمَّا دلالةُ الأسماءِ الخمسة عليها، وهي: «الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والملك» فمبنيٌّ على أصلَينِ:

(١) أي: في الفاتحة.

أحدهما: أن أسماءَ الرب تبارك وتعالى دالةٌ على صفاتِ كماله، فهي مشتقةٌ من الصفاتِ، فهي أسماءٌ وهي أوصافٌ، وبذلك كانت حُسْنَى؛ إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها لم تكن حُسْنَى، ولا كانت دالَّةً على مدحٍ ولا كمالٍ، ولساغَ وقوعُ أسماءِ الانتقام والغضب في مقامِ الرحمة والإحسان، وبالعكسِ، فيقال: اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي، فاغفِرْ لي إنك أنت المنتقمُ، واللهم أَعطِني فإنك أنت الضارُّ المانعُ، ونحوُ ذلك.

الأصل الثاني: أن الاسمَ من أسمائه تبارك وتعالى كما يدلُّ على الذاتِ والصفةِ التي اشتقَّ منها بالمطابقةِ، فإنه يدلُّ عليه دلالتَينِ أخريَينِ بالتضمُّنِ واللزومِ، فيدلُّ على الصفةِ بمفردها بالتضمُّنِ، وكذلك على الذاتِ المجردةِ عن الصفة، ويدلُّ على الصفةِ الأخرى باللزومِ، فإن اسمَ السميعِ يدلُّ على ذاتِ الرب وسمعِه بالمطابقة، وعلى الذاتِ وحدَها، وعلى السمعِ وحدَه بالتضمُّنِ، ويدلُّ على اسمِ الحي وصفةِ الحياة بالالتزامِ، وكذلك سائرُ أسمائِه وصفاته.

إذا تقرَّر هذان الأصلانِ فاسمُ «الله» دالٌّ على جميعِ الأسماء الحسنى، والصفاتِ العليا بالدلالات الثلاثِ، فإنه دالٌّ على إلهيتِه المتضمنةِ لثبوتِ صفاتِ الإلهيةِ له مع نفيِ أضدادِها عنه.

وصفاتُ الإلهية هي صفاتُ الكمال المنزهة عن التشبيهِ والمثالِ، وعن العيوبِ والنقائصِ؛ ولهذا يضيفُ الله تعالى سائرَ الأسماء الحُسْنَى إلى هذا الاسمِ العظيمِ، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويُقالُ: الرحمنُ والرحيمُ والقدوسُ والسلامُ والعزيزُ والحكيمُ من أسماءِ الله، ولا يُقالُ: اللهُ مِن أسماءِ الرحمنِ، ولا مِن أسماءِ العزيز، ونحوُ ذلك.

فعُلِمَ أن اسمَه «الله» مستلزمٌ لجميع معاني الأسماءِ الحُسْنَى، دالٌّ عليها بالإجمالِ، والأسماءُ الحسنى تفصيلٌ وتبيينٌ لصفاتِ الإلهيةِ التي اشتقَّ منها اسمُ الله، واسمُ الله دالٌّ على كونه مألوهًا معبودًا، تألهه الخلائقُ محبةً وتعظيمًا وخضوعًا، وفزعًا إليه في الحوائجِ والنوائبِ، وذلك مستلزمٌ لكمالِ ربوبيتِه ورحمتِه، المتضمنَينِ لكمالِ المُلْكِ والحمدِ، وإلهيتِه وربوبيتِه ورحمانيتِه، وملكُهُ مستلزمٌ لجميع صفات كماله؛ إذ يستحيلُ ثبوتُ ذلك لمن ليس بحيٍّ، ولا سميعٍ، ولا بصيرٍ، ولا قادرٍ، ولا متكلمٍ، ولا فعَّالٍ لما يريدُ، ولا حكيمٍ في أفعالِه.

وصفاتُ الجلالِ والجمالِ: أخصُّ باسمِ الله.

وصفاتُ الفعلِ والقدرة، والتفردِ بالضرِّ والنفع، والعطاءِ والمنع، ونفوذِ المشيئة وكمال القوة، وتدبيرِ أمر الخليقة - أخصُّ باسمِ الربِّ.

وصفاتُ الإحسانِ، والجودِ والبر، والحنانِ والمنة، والرأفةِ واللطف - أخصُّ باسمِ الرحمنِ، وكرر إيذانًا بثبوتِ الوصفِ، وحصولِ أثرِه، وتعلقِه بمتعلقاتِه.

فصل في بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين شفاء القلوب وشفاء الأبدان

فأما اشتمالها على شفاء القلوب: فإنها اشتملَتْ عليه أتمَّ اشتمالٍ؛ فإن مدارَ اعتلالِ القلوب وأسقامِها على أصلَينِ: فسادِ العلم، وفسادِ القصد، ويترتبُ عليهما داءانِ قاتلانِ، وهما الضلالُ والغضبُ، وهذان المرضانِ هما ملاكُ أمراضِ القلوب جميعِها.

فهدايةُ الصراطِ المستقيم تتضمَّنُ الشفاءَ من مرضِ الضلالِ، والتحققُ بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ علمًا ومعرفةً، وعملًا وحالًا يتضمَّنُ الشفاءَ من مرضِ فسادِ القلبِ والقصدِ؛ فإن فسادَ القصدِ يتعلقُ بالغاياتِ والوسائلِ، فمن طلبَ غايةً منقطعةً مضمحلةً فانيةً، وتوسَّل إليها بأنواعِ الوسائلِ الموصلةِ إليها - كان كلا نوعَيْ قصدِه فاسدًا.

وأما تضمنها لشفاء الأبدان: ففي الصحيحِ من حديثِ أبي المتوكلِ الناجي عن أبي سعيد الخدري ﵁: «أن ناسًا مِن أصحابِ النبي ﷺ مرُّوا بحيٍّ من العربِ، فلم يُقْرُوهم، ولم يُضَيِّفُوهم، فلُدِغَ سيدُ الحي، فأتوهم، فقالوا: هل عندَكم من رقيةٍ، أو هل فيكم مِن راقٍ؟ فقالوا: نعم، ولكنكم لم تُقروننا، فلا نفعلُ حتى تجعلوا لنا جُعلًا، فجعلوا لهم على ذلك قطيعًا مِن الغنم، فجعل رجلٌ منا يقرأُ عليه بفاتحة الكتاب، فقام كأن لم يكن به قَلَبَةٌ[1]، فقلنا: لا تَعجلوا حتى نأتيَ النبيَّ ﷺ، فأتيناه، فذكَرْنا له ذلك، فقال: **ما يُدريك أنها رقيةٌ؟ كُلُوا، واضرِبُوا لي معكم بسهمٍ**»[2].

---

(١) قلبة: أي علة.

(٢) البخاري (٢٢٧٦، ٥٠٠٧، وأخر)، ومسلم (٢٢٠١).

فصل في اشتمال الفاتحة على الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنحل، والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة

وهذا يُعلمُ بطريقين: مجملٍ، ومفصلٍ:

أما المجمل: فهو أن الصراطَ المستقيمَ متضمنٌ معرفةَ الحقِّ وإيثارَه وتقديمَه على غيرِه، ومحبتَه والانقيادَ له، والدعوةَ إليه، وجهادَ أعدائِهِ بحسبِ الإمكانِ.

وأما المفصل: فبمعرفةِ المذاهبِ الباطلةِ، واشتمالِ كلماتِ الفاتحة على إبطالِها.

فالناس قسمانِ: مقرٌّ بالحقِّ تعالى، وجاحدٌ له. فتضمنَتِ الفاتحةُ إثباتَ الخالقِ تعالى، والردَّ على من جحدَه، بإثباتِ ربوبيتِه تعالى للعالمين.

[فصل في اشتمال الفاتحة على كلمتي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾]

وسرُّ الخلقِ والأمرِ، والكتبِ والشرائعِ، والثوابِ والعقابِ انتهى إلى هاتين الكلمتَينِ، وعليهما مدارُ العبوديةِ والتوحيدِ، حتى قيل: أنزل اللهُ مائةَ كتابٍ وأربعةَ كتبٍ، جَمَعَ معانيها في التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ، وجَمَعَ معانيَ هذه الكتبِ الثلاثة في القرآنِ، وجَمَعَ معانيَ القرآنِ في المفصَّلِ، وجَمَعَ معانيَ المفصَّلِ في الفاتحة، ومعانيَ الفاتحةِ في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهما الكلمتانِ المقسومتانِ بين الربِّ وبين عبدِه نصفَينِ، فنصفُهما له تعالى وهو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ونصفُهما لعبده وهو: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

والعبادةُ تجمعُ أصلَين: غايةَ الحبِّ، بغاية الذلِّ والخضوعِ.

والاستعانةُ تجمعُ أصلَين: الثقةَ بالله، والاعتمادَ عليه.

وهذان الأصلانِ - وهما التوكلُ[1] والعبادةُ - قد ذُكِرَا في القرآنِ في عدةِ مواضعَ، قَرَنَ بينهما فيها، هذا أحدُها.

وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة:

- مِن بابِ تقديم الغاياتِ على الوسائلِ؛ إذ «العبادة» غايةُ العبادِ التي خُلِقُوا لها، و«الاستعانة» وسيلةٌ إليها.

- ولأن «الاستعانة» جزءٌ مِن «العبادة»، مِن غيرِ عكسٍ.

- ولأن «الاستعانة» طلبٌ منه، و «العبادة» طلبٌ له.

- ولأن «العبادة» حقُّه الذي أوجبَه عليك، و«الاستعانة» طلبُ العونِ على «العبادة».

---

(١) وهو بمعنى الاستعانة.

- ولأن «العبادة» شكرُ نعمتِه عليك، والله يحبُّ أن يُشكرَ، و«الإعانة» فعلُه بك وتوفيقُه لك.

- ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ له، و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ به، وما له مقدَّمٌ على ما به.

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين[1] ففيه:

- أدبُهُم مع الله بتقديمِ اسمِه على فعلِهم.

- وفيه: الاهتمامُ وشدةُ العنايةِ به.

- وفيه: الإيذانُ بالاختصاص، المسمَّى بالحصر، فهو في قوةِ: لا نعبدُ إلا إياك، ولا نستعينُ إلا بك.

وفي إعادة ﴿إِيَّاكَ﴾ مرة أخرى: دلالةٌ على تعلقِ هذه الأمورِ بكل واحدٍ مِن الفعلَين، ففي إعادةِ الضميرِ مِن قوةِ الاقتضاءِ لذلك ما ليس في حذفِه، فإذا قلتَ للملكِ مثلًا: إياك أحبُّ، وإياك أخافُ، كان فيه من اختصاصِ الحبِّ والخوفِ بذاته والاهتمامِ بذكرِه، ما ليس في قولك: إياك أحبُّ وأخافُ.

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلت: هو حالٌ للقلب ينشأُ عن معرفتِه بالله، والإيمانِ بتفردِه بالخلقِ والتدبيرِ والضرِّ والنفعِ، والعطاءِ والمنعِ، وأنه ما شاءَ كان وإن لم يشَأِ الناسُ، وما لم يشَأْ لم يكن وإن شاءه الناسُ، فيوجب له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينةً به، وثقةً به، ويقينًا بكفايتِه لما توكَّلَ عليه فيه، وأنه مَلِيٌّ به، ولا يكون إلا بمشيئتِه، شاءه الناسُ أم أَبَوْه.

(١) أي: تقديم ﴿إِيَّاكَ﴾ على الفعلين: ﴿نَعۡبُدُ﴾، و﴿نَسۡتَعِينُ﴾.

فصل [شروط التحقق بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾]

إذا عُرِفَ هذا فلا يكون العبدُ متحققًا بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ إلا بأصلَينِ عظيمَينِ:

أحدهما: متابعةُ الرسولِ ﷺ.

والثاني: الإخلاصُ للمعبودِ.

فصل [في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار]

ثم أهلُ مقامِ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لهم في أفضلِ العبادةِ وأنفعِها وأحقِّها بالإيثارِ والتخصيصِ أربعُ طرقٍ، فهم في ذلك أربعةُ أصنافٍ:

الصنف الأول: عندهم أنفعُ العباداتِ وأفضلُها أشقُّها على النفوسِ وأصعبُها، قالوا: وإنما تستقيمُ النفوسُ بذلك؛ إذ طبعُها الكسلُ والمهانةُ، والإخلادُ إلى الأرضِ، فلا تستقيمُ إلا بركوبِ الأهوالِ وتحملِ المشاقِّ.

الصنف الثاني: قالوا: أفضلُ العباداتِ التجردُ، والزهدُ في الدنيا، والتقللُ منها غايةَ الإمكان، واطراحُ الاهتمام بها، وعدمُ الاكتراث بكل ما هو منها.

الصنف الثالث: رأَوا أن أنفعَ العباداتِ وأفضلَها: ما كان فيه نفعٌ متعدٍ، فرأوه أفضلَ من ذي النفعِ القاصرِ، فرأَوا خدمةَ الفقراء، والاشتغالَ بمصالح الناس وقضاءَ حوائجهم، ومساعدتَهم بالمال والجاه والنفع أفضلُ.

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضلَ العبادة العملُ على مرضاة الربِّ في كل وقتٍ بما هو مقتضى ذلك الوقتِ ووظيفتُه، فأفضلُ العباداتِ في وقت الجهاد: الجهادُ وإن آلَ إلى تركِ الأورادِ، مِن صلاةِ الليل وصيامِ النهار. والأفضلُ في وقتِ حضورِ الضيفِ مثلًا: القيامُ بحقِّه، والاشتغالُ به عن الوردِ المستحبِّ، وكذلك في أداءِ حقِّ الزوجةِ والأهلِ.

وهؤلاء هم أهلُ التعبدِ المطلقِ، والأصنافُ قبلَهم أهلُ التعبدِ المقيدِ، فمتى خرجَ أحدُهم عن النوعِ الذي تعلَّقَ به من العبادة وفارَقَه يرى نفسَه كأنه قد نقصَ وتركَ عبادتَه، فهو يعبدُ الله على وجهٍ واحدٍ، وصاحبُ التعبدِ المطلقِ ليس له غرضٌ في تعبدٍ بعينه يؤثرُه على غيرِه، بل غرضُه تتبعُ مرضاةِ الله تعالى أين كانت، فمدارُ تعبدِه عليها، فهو لا يزالُ متنقلًا في منازلِ العبودية، كلما رُفِعَتْ له منزلةٌ عَمِلَ على سيرِه إليها، واشتغلَ بها حتى تلوحَ له منزلةٌ أخرى، فهذا دأبُه في السير حتى ينتهي سيرُه.

فصل [في مقصود العبادة]

ثم للناسِ في منفعةِ العبادة وحكمتِها ومقصودِها طرقٌ أربعةٌ، وهم في ذلك أربعةُ أصنافٍ:

الصنف الأول: نفاةُ الحكمِ والتعليلِ، الذين يردُّون الأمرَ إلى محضِ المشيئةِ، وصرفِ الإرادةِ، فهؤلاء عندَهم القيامُ بها ليس إلا لمجردِ الأمرِ، مِن غيرِ أن تكونَ سببًا لسعادةٍ في معاشٍ ولا معادٍ، ولا سببًا لنجاةٍ، وإنما القيامُ بها لمجردِ الأمر ومحضِ المشيئة، وهؤلاء لا يجدون حلاوةَ العبادة ولا لذتَها، ولا يتنعَّمُون بها، وليست الصلاةُ قرةَ أعينهم، وليست الأوامرُ سرورَ قلوبهم، وغذاءَ أرواحهم وحياتهم؛ ولهذا يسمُّونها تكاليفَ، أي: قد كُلِّفُوا بها.

الصنف الثاني: القدريةُ النفاةُ، الذين يُثبتون نوعًا من الحكمةِ والتعليلِ ولكن لا يقومُ بالربِّ، ولا يرجعُ إليه، بل يرجعُ إلى مجردِ مصلحةِ المخلوقِ ومنفعتِه. فعندهم أن العباداتِ شُرِعَتْ أثمانًا لما يناله العبادُ من الثوابِ والنعيم، وأنها بمنزلةِ استيفاءِ أجرةِ الأجيرِ!

الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدةَ العبادةِ رياضةُ النفوس، واستعدادُها لفيضِ العلوم عليها، وخروجُ قواها عن قوى النفوسِ السبعية والبهيمية، فلو عُطِّلَتْ عن العبادات لكانت من جنسِ نفوسِ السباع والبهائم، والعباداتُ تخرجُها عن مألوفاتِها وعوائدِها، وتنقلُها إلى مشابهةِ العقولِ المجردة، فتصير عالمةً قابلةً لانتقاشِ صورِ العلوم والمعارف فيها.

وأما الصنف الرابع: فهم الطائفةُ المحمديةُ الإبراهيميةُ، أتباعُ الخليلَينِ، العارفون بالله وحكمتِه في أمرِه وشرعِه وخلقه، وأهلُ البصائر في عبادته، ومرادِه بها.

فاعْلَمْ أن سرَّ العبودية وغايتَها وحكمتَها إنما يطَّلعُ عليها من عرفَ صفاتِ الربِّ عز وجل، ولم يعطِّلْها، وعرفَ معنى الإلهية وحقيقتَها، ومعنى كونِه إلهًا، بل هو الإلهُ الحقُّ، وكل إلهٍ سواه فباطلٌ، بل أبطلُ الباطلِ، وأن حقيقةَ الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادةَ موجبُ إلهيته وأثرُها ومقتضاها، وارتباطُها بها كارتباطِ متعلقِ الصفاتِ بالصفاتِ، وارتباطِ المعلومِ بالعلم، والمقدورِ بالقدرة، والأصواتِ بالسمع، والإحسانِ بالرحمة، والعطاءِ بالجود.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفرادُه بالمحبة، وأن يكونَ الحبُّ كلُّه لله، فلا يحبُّ معه سواه، وإنما يحبُّ لأجله وفيه، كما يحبُّ أنبياءَه ورسلَه وملائكتَه وأولياءَه، فمحبتُنا لهم مِن تمامِ محبته، وليست محبةً معه.

وإذا كانت المحبةُ له هي حقيقةُ عبوديته وسرُّها، فهي إنما تتحققُ باتباع أمره، واجتنابِ نهيه، فعندَ اتباعِ الأمر واجتنابِ النهي تتبينُ حقيقةُ العبوديةِ والمحبةِ؛ ولهذا جعل تعالى اتِّباعَ رسولِه عَلَمًا عليها، وشاهدًا لمن ادعاها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فصل [قواعد التحقق بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾]

وبُنِي ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ على أربعِ قواعدَ: التحققُ بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قولِ اللسانِ، والقلبِ، وعملِ القلبِ، والجوارحِ.

فالعبودية: اسمٌ جامعٌ لهذه المراتبِ الأربعِ، فأصحابُ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ حقًّا هم أصحابُها.

فقولُ القلبِ: هو اعتقادُ ما أخبرَ اللهُ سبحانه به عن نفسِه، وعن أسمائِه وصفاتِه وأفعالِه وملائكتِه ولقائِه على لسانِ رسلِه.

وقولُ اللسانِ: الإخبارُ عنه بذلك، والدعوةُ إليه، والذبُّ عنه، وتبيينُ بطلانِ البدع المخالفة له، والقيامُ بذكره، وتبليغُ أوامره.

وعملُ القلبِ: كالمحبةِ له، والتوكلِ عليه، والإنابةِ إليه، والخوفِ منه والرجاءِ له، وإخلاصِ الدين له، والصبرِ له على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضا به وعنه، والموالاةِ فيه، والمعاداةِ فيه، والذلِّ له والخضوعِ، والإخباتِ إليه، والطمأنينةِ به، وغير ذلك من أعمالِ القلوب التي فرضُها أفرضُ مِن أعمالِ الجوارحِ، ومستحبُّها أحبُّ إلى الله من مستحبِّها، وعملُ الجوارح بدونها إمَّا عديمُ المنفعة أو قليلُ المنفعة.

وأعمالُ الجوارحِ: كالصلاةِ والجهاد، ونقلِ الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدةِ العاجز، والإحسانِ إلى الخلق، ونحوُ ذلك.

فصل [مراتب العبودية]

ورحى العبوديةِ تدورُ على خمسَ عشرةَ قاعدةً، مَن كمَّلها كمَّلَ مراتبَ العبوديةِ، وبيانُها أن العبوديةَ منقسمةٌ على القلبِ، واللسانْ، والجوارح، وعلى كلٍّ منها عبوديةٌ تخصُّه. والأحكامُ التي للعبوديةِ خمسةٌ: واجبٌ، ومستحبٌّ، وحرامٌ، ومكروهٌ، ومباحٌ، وهي لكلِّ واحدٍ من القلبِ، واللسانِ، والجوارحِ.

[عبوديات القلب الخمس]

فواجبُ القلبِ كالإخلاصِ، والتوكلِ، والمحبةِ، والصبرِ، والإنابةِ، والخوفِ، والرجاءِ، والتصديقِ الجازمِ.

وكذلك كلُّ واحد من هذه الواجبات القلبيةِ له طرفان: واجبٌ مستحقٌّ وهو مرتبةُ أصحابِ اليمين، وكمالٌ مستحبٌّ وهو مرتبةُ المقربين.

والقصد أن هذه الأعمالَ واجبَها ومستحبَّها هي عبوديةُ القلب، فمن عطَّلَها فقد عطَّلَ عبوديةَ المَلِكِ وإن قام بعبوديةِ رعيتِه مِن الجوارحِ. والمقصود أن يكونَ ملكُ الأعضاء وهو القلبُ قائمًا بعبوديتِه لله سبحانه، هو ورعيتُه.

وأمَّا المحرماتُ التي عليه: فالكبرُ، والرياءُ، والعجبُ، والحسدُ، والغفلةُ، والنفاقُ، وهي نوعان: كفرٌ، ومعصيةٌ.

وهذه الآفاتُ إنما تنشأُ من الجهل بعبوديةِ القلبِ، وتركِ القيامِ بها.

فوظيفةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على القلبِ قبلَ الجوارح، فإذا جهلَها وتركَ القيامَ بها امتلأ بأضدادِها ولابدَّ، وبحسب قيامِه بها يتخلصُ مِن أضدادِها.

فصل [عبوديات اللسان الخمس]

وأمَّا عبودياتُ اللسانِ الخمسُ:

فواجبها: النطقُ بالشهادتين، وتلاوةُ ما يلزمه تلاوتُه من القرآن، وردُّ السلام، والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليمُ الجاهل، وإرشادُ الضالِّ، وأداءُ الشهادة المتعينة، وصدقُ الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوةُ القرآن، ودوامُ ذكر الله، والمذاكرةُ في العلم النافع، وتوابعُ ذلك.

وأما محرمه: فهو النطقُ بكل ما يُبغِضُه اللهُ ورسولُه، كالنطقِ بالبدع المخالفة لما بعثَ الله به رسولَه، والدعاءِ إليها، وتحسينِها وتقويتِها، وكالقذفِ وسبِّ المسلم وأذاه بكل قولٍ، والكذبِ، وشهادةِ الزور، والقولِ على الله بلا علم وهو أشدُّها تحريمًا.

ومكروهه: التكلمُ بما تركُه خيرٌ مِن الكلام به، مع عدمِ العقوبةِ عليه.

فصل [عبوديات الجوارح الخمس]

وأمَّا العبودياتُ الخمسُ على الجوارحِ فعلى خمسٍ وعشرين مرتبةً أيضًا، إذ الحواسُ خمسةٌ، وعلى كلِّ حاسةٍ خمسُ عبودياتٍ.

فعلى السمع: وجوبُ الإنصات والاستماع لما أوجبَهُ الله ورسولُه عليه، ويحرمُ عليه استماعُ الكفر والبدع، وأمَّا السمعُ المستحبُّ فكاستماعِ المستحب من العلم، والمكروهُ عكسُه، وهو استماعُ كلِّ ما يُكره ولا يُعاقَب عليه، والمباحُ ظاهرٌ.

وأما النظر الواجب: فالنظرُ في المصحف، والنظرُ الحرام: النظرُ إلى الأجنبيات بشهوة مطلقًا، والمستحبُّ: النظرُ في كتب العلم والدين التي يَزدادُ بها الرجلُ إيمانًا

وعلمًا، والمكروهُ: فضولُ النظر الذي لا مصلحةَ فيه، والمباحُ: النظرُ الذي لا مضرَّةَ فيه في العاجلِ والآجلِ ولا منفعةَ.

وأما الذوق الواجبُ: فتناولُ الطعام والشراب عندَ الاضطرار إليه وخوفِ الموت، والذوقُ الحرامُ: كذوقِ الخمرِ، وأما المكروهُ: فكذوقِ المشتبهاتِ، والأكلِ فوقَ الحاجة، والذوقُ المستحبُّ: أكلُ ما يُعِينك على طاعة الله عز وجل، مما أذن الله فيه، والذوقُ المباحُ: ما لم يكن فيه إثمٌ ولا رجحانٌ.

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم، فالشمُّ الواجبُ: كلُّ شمٍّ تعين طريقًا للتمييز بين الحلال والحرام، كالشمِّ الذي تُعْلَمُ به هذه العينُ هل هي خبيثةٌ أو طيبةٌ؟ وأما الشمُّ الحرامُ: فتعمدُ شمِّ الطيب من النساء الأجنبيات خشيةَ الافتتان بما وراءه، وأما الشمُّ المستحبُّ: فشمُّ ما يُعِينك على طاعة الله، ويقوي الحواسَ، ويبسطُ النفسَ للعلم والعمل، والمكروهُ: كشمِّ طيبِ الظلمة، وأصحابِ الشبهات، ونحوُ ذلك، والمباحُ: ما لا منعَ فيه مِن الله ولا تبعةَ، ولا فيه مصلحةٌ دينيةٌ، ولا تعلقٌ له بالشرعِ.

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس: فاللمسُ الواجبُ: كلمس الزوجة حين يجب جماعُها، والحرامُ: لمسُ ما لا يحلُّ من الأجنبيات، والمستحبُّ: إذا كان فيه غضُّ بصره، وكفُّ نفسه عن الحرام، وإعفافُ أهله، والمكروهُ: لمسُ الزوجة في الإحرام للذةِ، وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه، والمباحُ: ما لم يكن فيه مفسدةٌ ولا مصلحةٌ دينيةٌ.

فصل في منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التي ينتقل فيها القلب منزلة منزلة في حال سيره إلى الله

وقد أَكْثَرَ الناسُ في صفةِ المنازل وعددِها، فمنهم مَن جعلَها ألفًا، ومنهم مَن جعلَها مائةً، ومنهم مَن زاد ونقصَ، فكلٌّ وَصَفُها بحسب سيرِه وسلوكِه. وسأذكرُ فيها أمرًا مختصرًا جامعًا نافعًا، إن شاء الله تعالى.

[منزلة اليقظة]

فأولُ منازلِ العبوديةِ اليقظةُ، وهي انزعاجُ القلبِ لروعة الانتباهِ مِن رَقْدَةِ الغافلين، ولله ما أنفعَ هذه الروعة، وما أعظمَ قدرَها وخطرَها، وما أشدَّ إعانتَها على السلوك! فمن أحسَّ بها فقد أحسَّ - والله - بالفلاح، وإلا فهو في سكراتِ الغفلة، فإذا انتبه شمَّر لله بهمَّتِه إلى السفرِ إلى منازلِه الأولى، وأوطانِه التي سُبِيَ منها.

[منزلة الفكرة]

فإذا استحكَمَتْ يقظتُهُ أوجَبَتْ له الفكرةَ، وهي تحديقُ القلبِ إلى جهة المطلوب التماسًا له.

[منزلة البصيرة]

فإذا صحَّت فكرتُه أوجبَتْ له البصيرةَ، فهي نورٌ في القلب يبصرُ به الوعدَ والوعيدَ، والجنة والنار، وما أعدَّ اللهُ في هذه لأوليائِه، وفي هذه لأعدائِه.

والبصيرةُ على ثلاثِ درجاتٍ، مَن استكمَلَها فقد استكمَلَ البصيرةَ: بصيرةٌ في الأسماءِ والصفاتِ، وبصيرةٌ في الأمر والنهي، وبصيرةٌ في الوعد والوعيد.

المرتبة الأولى: البصيرة في الأسماء والصفات: ألَّا يتأثرَ إيمانُك بشبهةٍ تُعارِض ما وصفَ اللهُ به نفسَه، ووصفَهُ به رسولُه.

المرتبة الثانية من البصيرة: البصيرة في الأمر والنهي: وهي تجريدُه عن المعارضةِ بتأويلٍ، أو تقليدٍ، أو هوى.

المرتبة الثالثة: البصيرة في الوعد والوعيد: وهي أن تشهدَ قيامَ الله على كلِّ نفسٍ بما كسبَتْ في الخيرِ والشرِّ، عاجلًا وآجلًا، في دارِ العملِ ودارِ الجزاءِ، وأن ذلك هو مُوجَبُ إلهيتِه وربوبيتِه، وعدلِه وحكمتِه.

[منزلة القصد]

فإذا انتبهَ وأبصرَ أخذَ في القصدِ وصدقِ الإرادة، وأجمعَ القصدَ والنيةَ على سفر الهجرة إلى الله، وعَلِمَ وتيقَّنَ أنه لابدَّ له منه، فأخذ في أهبةِ السفر، وتعبئةِ الزاد ليوم المعاد، والتجردِ عن عوائقِ السفر، وقطعِ العلائقِ التي تمنعُهُ من الخروج.

[منزلة العزم]

فإذا استحكَمَ قصدُه صار عزمًا جازمًا، مستلزمًا للشروعِ في السفر، مقرونًا بالتوكلِ على الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وحقيقتُه: هو استجماعُ قوى الإرادةِ على الفعل.

[منزلة المحاسبة]

فإذا عَزَمَ عليه وأَجْمَعَ قصدَه انتقَلَ إلى منزلةِ المحاسبةِ، وهي التمييزُ بين ما له وعليه، فيستصحبُ ما له، ويؤدِّي ما عليه؛ لأنه مسافرُ سفرَ من لا يعودُ.

ومِن منزلةِ المحاسبةِ يصحُّ له نزولُ منزلةِ التوبة؛ لأنه إذا حاسبَ نفسَه عرَفَ ما عليه من الحقِّ، فخرَجَ منه، وتنصَّلَ منه إلى صاحبِه، وهي حقيقةُ التوبة، فكان تقديمُ

المحاسبةِ عليها لذلك أولى، ولتأخيرِها عنها وجهٌ أيضا، وهو أن المحاسبةَ لا تكون إلا بعد تصحيح التوبة.

والتحقيق: أن التوبةَ بين محاسبتَينِ: محاسبةٍ قبلَها تقتضي وجوبَها، ومحاسبةٍ بعدَها تقتضي حفظَها، فالتوبةُ محفوفةٌ بمحاسبتين.

وقد دلَّ على المحاسبةِ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر: ١٨]، فأمر سبحانه العبدَ أن ينظرَ ما قدَّم لغدٍ، وذلك يتضمَّنُ محاسبةَ نفسِه على ذلك، والنظرَ هل يصلحُ ما قدَّمه أن يَلْقى اللهَ به أو لا يصلحُ.

والمقصودُ من هذا النظرِ ما يُوجِبُه ويقتضيه مِن كمال الاستعدادِ ليوم المعادِ، وتقديمِ ما يُنجيه مِن عذابِ الله، ويبيِّضُ وجهَه عند الله، وقال عمرُ بن الخطاب ﷺ: حاسِبوا أنفسَكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنوا أنفسَكم قبلَ أن تُوزنوا، وتزيَّنوا للعرضِ الأكبرِ: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٨].

[منزلة التوبة]

فإذا صحَّ هذا المقامُ، ونزل العبدُ في هذه المنزلة، أشرَفَ منها على مقامِ التوبة؛ لأنه بالمحاسبةِ قد تميَّز عندَه ما له مما عليه، فليجمَعْ همَّتَه وعزمَه على النزول فيه والتشميرِ إليه إلى الممات.

ومنزلُ التوبة أولُ المنازل وأوسطُها وآخرُها، فلا يفارِقُه العبدُ السالكُ، ولا يزالُ فيه إلى الممات، وإن ارتحَلَ إلى منزلٍ آخرَ ارتحَلَ به، واستصحبَهُ معه ونزَلَ به.

فالتوبةُ هي بدايةُ العبدِ ونهايته، وحاجتُه إليها في النهاية ضروريةٌ، كما أن حاجتَه إليها في البداية كذلك، وفي الصحيحِ عنه ﷺ أنه قال: «**يا أيها الناسُ، تُوبُوا إلى الله**،

فوالله إني لأتوبُ إليه في اليوم أكثرَ مِن سبعين مرَّةً»[١]. وكان أصحابُه يعدُّون له في المجلسِ الواحد قبلَ أن يقومَ: «رب اغفِرْ لي وتُبْ عليَّ إنك أنتَ التوابُ الغفورُ» مائة مرة[٢].

فصل [شرائط التوبة]

قال [صاحب المنازل]: «وشرائطُ التوبة ثلاثةٌ: الندمُ، والإقلاعُ، والاعتذارُ».

فأمَّا الندمُ: فإنه لا تتحققُ التوبةُ إلا به، إذ من لم يندَمْ على القبيح فذلك دليلٌ على رضاه به، وإصرارِه عليه، وفي المسند: «**الندمُ توبةٌ**»[٣].

وأمَّا الإقلاعُ: فتستحيلُ التوبةُ مع مباشرةِ الذنبِ.

وأمَّا الاعتذارُ: فإظهارُ الضعفِ والمسكنة، وغلبةِ العدو، وقوةِ سلطان النفس، وأنه لم يكن منِّي ما كان عن استهانةٍ بحقك، ولا جهلًا به، ولا إنكارًا لاطلاعك، ولا استهانةً بوعيدك، وإنما كان مِن غلبةِ الهوى، وضعفِ القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعًا في مغفرتك، واتكالًا على عفوِك، وحسنَ ظنٍّ بك، ورجاءً لكرمك، وطمعًا في سعةِ حلمِك ورحمتِك، وغرَّني بك الغرورُ، والنفسُ الأمارة بالسوء، وسترُك المرخَى عليَّ، وأعانني جهلي، ولا سبيلَ إلى الاعتصام لي إلا بك، ولا معونةَ على طاعتك إلا بتوفيقِك، ونحوُ هذا من الكلام المتضمِّنُ للاستعطافِ والتذلل والافتقار، والاعترافِ بالعجز، والإقرارِ بالعبودية.

---

(١) البخاري (٦٣٠٧).

(٢) أبو دواد (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، والنسائي في الكبرى (٩٨٥٢)، وابن ماجه (٣٨١٤).

(٣) أحمد (٦/ ٣٧، ٧/ ١١٣، وأخر)، وابن ماجه (٤٢٥٢).

فهذا مِن تمامِ التوبةِ، وإنما يسلكُهُ الأكياسُ المتملِّقون لربِّهم ﷻ، والله يحبُّ مِن عبدِه أن يتملَّقَ له، وفي الصحيح: «**لا أحدَ أحبُّ إليه العذرُ مِن الله**»[1].

[من علامات قبول التوبة]

فالتوبةُ المقبولةُ الصحيحةُ لها علاماتٌ، منها:

- أن يكونَ بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها.

- **ومنها**: أنه لا يزالُ الخوفُ مصاحبًا له لا يأمنُ مكرَ الله طرفةَ عين.

- **ومنها**: انخلاعُ قلبه، وتقطعُه ندمًا وخوفًا، وهذا على قدرِ عظمِ الجناية وصغرِها، وهذا تأويلُ ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة: ١١٠]: قال: تَقَطُّعُها بالتوبة.

- **ومن مُوجِبات التوبةِ الصحيحة أيضًا**: كسْرَةٌ خاصةٌ تحصلُ للقلبِ لا يشبهُها شيءٌ، ولا تكون لغير المذنبِ، لا تحصلُ بجوعٍ، ولا رياضةٍ، ولا حُبٍّ مجرد، وإنما هي أمرٌ وراءَ هذا كله، تكسرُ القلبَ بين يدي الرب كسرةً تامةً، قد أحاطَتْ به من جميع جهاته، وألقَتْه بين يدي ربه طريحًا ذليلًا خاشعًا، كحالِ عبد جانٍ آبقٍ من سيدِه، فأُخِذَ فأُحْضِرَ بين يديه، ولم يجِدْ مَن يُنجيه مِن سطوتِه، ولم يجِدْ منه بدًّا ولا عنه غناءً، ولا منه مهربًا، وعَلِمَ أن حياتَه وسعادتَه وفلاحَه ونجاحَه في رضاه عنه، وقد عَلِمَ إحاطةَ سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبِّه لسيده، وشدةِ حاجته إليه، وعِلْمِه بضعفِه وعجزِه وقوةِ سيدِه، وذلِّه وعزِّ سيده.

(١) البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩، ٢٧٦٠).

فصل [صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة]

اعْلَمْ أن صاحبَ البصيرة إذا صدرَتْ منه الخطيئةُ فله نظرٌ إلى أربعةِ أمور:

أحدها: أن ينظرَ إلى أمرِ الله ونهيِه، فيحدِثُ له ذلك الاعترافَ بكونها خطيئةً، والإقرارَ على نفسه بالذنب.

الثاني: أن ينظرَ إلى الوعدِ والوعيدِ، فيحدِثُ له ذلك خوفًا وخشيةً، تحملُه على التوبة.

الثالث: أن ينظرَ إلى تمكينِ الله له منها، وتخليتِه بينه وبينها، وتقديرِها عليه، وأنه لو شاء لعصمَهُ منها وحالَ بينه وبينها، فيحدِثُ له ذلك أنواعًا مِن المعرفة بالله وأسمائِه وصفاته، وحكمتِه، ورحمتِه، ومغفرتِه وعفوه، وحلمِه وكرمه، وتوجبُ له هذه المعرفةُ عبوديةً بهذه الأسماء، لا تحصلُ بدون لوازمها ألبتةَ، ويَعْلَمُ ارتباطَ الخلقِ والأمر، والجزاءِ والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته، وأن ذلك موجَبُ الأسماءِ والصفات، وأثرُها في الوجود، وأن كلَّ اسم وصفة مقتضٍ لأثرِه وموجَبِه، متعلقٌ به لابدَّ منه.

وهذا المشهدُ يطلعُه على رياضٍ مونقةٍ مِن المعارف والإيمان، وأسرارُ القَدَرِ والحكمةِ يضيقُ عن التعبير عنها نطاقُ الكلمِ.

النظر الرابع: نظرُه إلى الآمِرِ له بالمعصية، المزيِّنِ له فعلَها، الحاضِّ له عليها، وهو شيطانُه الموكلُ به، فيفيده النظرُ إليه وملاحظتُه اتخاذَهُ عدوًّا، وكمالَ الاحتراز منه، والتحفظَ واليقظة، والانتباهَ لما يريدُ منه عدوُّه وهو لا يشعرُ، فإنه يريدُ أن يظفرَ به في عقبةٍ من سبعِ عقباتٍ، بعضُها أصعبُ من بعض، لا ينزلُ منه من العقبةِ الشاقةِ إلى ما دونها إلا إذا عجزَ عن الظفر به فيها:

العقبة الأولى: عقبةُ الكفرِ بالله.

العقبة الثانية: وهي عقبةُ البدعةِ.

العقبة الثالثة: وهي عقبةُ الكبائرِ.

العقبة الرابعة: وهي عقبةُ الصغائرِ.

العقبة الخامسة: وهي عقبةُ المباحاتِ.

العقبة السادسة: وهي عقبةُ الأعمالِ المرجوحةِ المفضولة من الطاعات.

[**العقبة السابعة**]: عقبةُ تسليطِ جنده عليه بأنواع الأذى، باليدِ واللسانِ والقلب، على حسب مرتبتِهِ في الخيرِ.

فصل [من أحكام التوبة]

ونذكر نُبَذًا تتعلقُ بأحكامِ التوبة، تشتدُّ الحاجةُ إليها، ولا يليقُ بالعبد جهلُها:

منها: أن المبادرةَ إلى التوبةِ من الذنب فرضٌ على الفور، ولا يجوزُ تأخيرُها، فمتى أخَّرَها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنبِ بَقِيَ عليه توبةٌ أخرى، وهي توبتُه من تأخيرِ التوبة، وقلَّ أن تخطرَ هذه ببال التائب.

ومن أحكامها: أنها إذا كانت متضمنةً لحقِّ آدمي أن يخرجَ التائبُ إليه منه، إمَّا بأدائِه، وإمَّا باستحلالِه منه بعد إعلامِه به إن كان حقًّا ماليًّا أو جنايةً على بدنه أو بدن موروثه، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَن كان لأخيه عندَه مظلمةٌ مِن مالٍ أو عرضٍ، فليتحلَّلْه اليومَ، قبلَ ألَّا يكونَ دينارٌ ولا درهمٌ، إلا الحسنات والسيئات**»[1].

فصل [الفرق بين الاستغفار والتوبة]

الاستغفارُ نوعان: مفردٌ، ومقرونٌ بالتوبة.

---

(١) البخاري(٢٤٤٩، ٦٥٣٤).

فالمفردُ: كقولِ نوحٍ عليه السلام لقومِه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠، ١١] وكقولِ صالحٍ عليه السلام لقومِه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

والمقرونُ: كقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣]، وقولُ شعيبٍ عليه السلام: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

فالاستغفارُ يتضمنُ التوبةَ، والتوبةُ تتضمنُ الاستغفارَ، وكلٌّ منهما يدخلُ في مسمَّى الآخر عندَ الإطلاق، وأمَّا عند اقترانِ إحدى اللفظتين بالأخرى فالاستغفار طلبُ وقايةِ شرِّ ما مضى، والتوبة الرجوعُ وطلبُ وقايةِ شرِّ ما يخافه في المستقبل من سيئاتِ أعمالِه.

فصل [التوبة النصوح]

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

والنصوحُ على وزن فَعُول المعدول به عن فاعل؛ قصدًا للمبالغةِ، كالشكورِ والصبورِ، وأصلُ مادة (ن / ص / ح) لخلاصِ الشيءِ من الغشِّ والشوائبِ الغريبة، وهو ملاقٍ في الاشتقاقِ الأكبرِ لـ«نصح» إذا خلص، فالنصحُ في التوبة والعبادة والمشورة تخليصُها مِن كلِّ غشٍّ ونقص وفساد، وإيقاعُها على أكملِ الوجوه، والنصحُ ضد الغشِّ.

النصحُ في التوبة يتضمَّنُ ثلاثةَ أشياء:

الأول: تعميمُ جميعِ الذنوب واستغراقُها بها، بحيث لا تدعُ ذنبًا إلا تناولَتْه.

والثاني: إجماعُ العزمِ والصدق بكلِّيته عليها، بحيث لا يبقَى عنده ترددٌ، ولا تلومٌ ولا انتظارٌ، بل يجمعُ عليها كلَّ إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

الثالث: تخليصُها مِن الشوائبِ والعلل القادحة في إخلاصِها، ووقوعُها لمحضِ الخوف من الله وخشيتِه، والرغبةِ فيما لديه، والرهبةِ مما عنده.

فالأولُ يتعلقُ بما يتوبُ منه، والثالثُ يتعلقُ بمَن يتوبُ إليه، والأوسطُ يتعلقُ بذاتِ التائبِ ونفسِه.

ولا ريب أن هذه التوبةَ تستلزمُ الاستغفارَ وتتضمنُه، وتمحو جميعَ الذنوب، وهي أكملُ ما يكون من التوبة.

فصل في الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب

وقد جاء في كتاب الله تعالى ذكرُهما مقترنَين، وذكرُ كلا منهما منفردًا عن الآخر:

فالمقترنان: كقوله تعالى حاكيًا عن عباده المؤمنين: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

والمنفردُ: كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ [محمد: ٢]، وقوله في المغفرة: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [محمد: ١٥].

فهاهنا أربعةُ أمورٍ: ذنوبٌ، وسيئاتٌ، ومغفرةٌ، وتكفيرٌ:

- **فالذنوب:** المرادُ بها الكبائرُ.

- **والمرادُ بالسيئات:** الصغائرُ، وهي ما تعملُ فيه الكفارةُ، من الخطأ وما جرى مجراه؛ ولهذا جُعل لها التكفيرُ، ومنه أُخِذتْ الكفارةُ، ولهذا لم يكن لها سلطانٌ ولا عملٌ في الكبائر في أصحِّ القولين.

والدليلُ على أن السيئاتِ هي الصغائرُ والتكفيرَ لها قولُه تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١]، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول «**الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ - مكفِّراتٌ لما بينهن إذا اجتنبَتْ الكبائرُ**»[1].

- ولفظُ المغفرةِ أكملُ من لفظ التكفير؛ ولهذا كان مع الكبائر، والتكفيرُ مع الصغائرِ، فإن لفظَ المغفرة يتضمنُ الوقايةَ والحفظَ، ولفظَ التكفير يتضمنُ السترَ والإزالةَ، وعند الإفراد يدخلُ كلٌّ منهما في الآخر كما تقدم.

وإذا فُهِمَ هذا فُهِمَ السرُّ في الوعدِ على المصائبِ والهموم والغموم والنصب والوصب بالتكفيرِ دون المغفرةِ، كقوله في الحديث الصحيح: «**ما يُصيبُ المؤمنَ مِن همٍّ ولا غمٍّ ولا أذًى - حتى الشوكةُ يشاكُّها - إلا كفَّرَ اللهُ بها من خطاياه**»[2]. فإن المصائبَ لا تستقلُّ بمغفرةِ الذنوب، ولا تُغفرُ الذنوبُ جميعًا إلا بالتوبة، أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوبُ، فهي كالبحر لا يتغيرُ بالجيف، وإذا بلغ الماءُ قلتَينِ لم يحمِلْ الخبثَ.

فلأهلِ الذنوبِ ثلاثةُ أنهارٍ عظامٍ يتطهرون بها في الدنيا، فإن لم تفِ بطهرهم طُهِّروا في نهر الجحيم يومَ القيامة: نهرُ التوبة النصوح، ونهرُ الحسناتِ المستغرقة للأوزار المحيطة بها، ونهرُ المصائبِ العظيمة المكفرة، فإذا أراد الله بعبده خيرًا أدخلَهُ أحدَ هذه الأنهار الثلاثة، فوَرَدَ القيامةَ طيبًا طاهرًا، فلم يحتَجْ إلى التطهيرِ الرابعِ.

---

(١) مسلم (٢٣٣).
(٢) البخاري (٥٦٤٠، ٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٢).

فصل [توبة العبد بين توبتين من ربه]

وتوبةُ العبد إلى الله محفوفةٌ بتوبةٍ من الله عليه قبلَها، وتوبةٍ منه بعدَها، فتوبتُه بين توبتين من ربه: سابقةً، ولاحقةً؛ فإنه تاب عليه أولًا إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبدُ، فتاب الله عليه ثانيًا قبولًا وإثابةً، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٨]، فأخبر سبحانه أن توبتَه عليهم سبقَتْ توبتَهم، وأنها هي التي جعلَتْهم تائبين، فكانت سببًا مقتضيًا لتوبتِهم، فدلَّ على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم، والحكمُ ينتفي لانتفاءِ علتِه.

فتوبةُ العبد رجوعُه إلى سيده بعد الإباقِ، وتوبةُ الله نوعان: إذنٌ وتوفيقٌ، وقبولٌ وإمدادٌ.

فصل [الأحوال التي تكون معها الكبيرة صغيرة وبالعكس]

وهاهنا أمرٌ ينبغي التفطنُ له، وهو أن الكبيرةَ قد يقترنُ بها - من الحياء والخوف والاستعظام لها - ما يُلحِقُها بالصغائر، وقد يقترنُ بالصغيرة - من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف، والاستهانة بها - ما يُلحِقُها بالكبائر، بل يجعلُها في أعلى رتبها.

وأيضا فإنه يُعفَى للمحبِّ ولصاحبِ الإحسانِ العظيم ما لا يُعفَى لغيره، ويُسامحُ بما لا يُسامحُ به غيرُه.

[المغفرة لصاحب التوحيد]

اعلَمْ أن أشعةَ «لا إله إلا الله» تبددُ مِن ضباب الذنوب وغيومها بقدرِ قوةِ ذلك الشعاع وضعفِه، فلها نورٌ، وتفاوتُ أهلها في ذلك النور - قوةً وضعفًا - لا يحصيه إلا الله تعالى.

فمِن الناسِ مَن نورُ هذه الكلمة في قلبِه كالشمس، ومنهم مَن نورُها في قلبه كالكوكب الدريِّ، ومنهم مَن نورُها في قلبه كالمشعلِ العظيمِ، وآخرُ كالسراج المضيء، وآخرُ كالسراج الضعيف؛ ولهذا تظهرُ الأنوارُ يومَ القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدارِ، بحسب ما في قلوبِهم مِن نورِ هذه الكلمة علمًا وعملًا، ومعرفةً وحالًا.

وليس التوحيدُ مجردَ إقرارِ العبد بأنه لا خالقَ إلا اللهُ، وأن اللهَ ربُّ كل شيء ومليكه، كما كان عباد الأصنام مقرِّين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمَّن - مِن محبةِ الله، والخضوعِ له، والذلِّ له، وكمالِ الانقياد لطاعته، وإخلاصِ العبادة له، وإرادةِ وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنعِ، والعطاءِ، والحبِّ، والبغضِ - ما يحولُ بين صاحبِه وبين الأسبابِ الداعية إلى المعاصي، والإصرار عليها.

ومَن عرَفَ هذا عرَفَ قولَ النبي ﷺ: **«إن الله حرَّم على النارِ مَن قال: لا إلهَ إلا اللهُ، يبتغي بذلك وجهَ الله»**[1].

والشارعُ - صلوات الله وسلامه عليه - لم يجعَلْ ذلك حاصلًا بمجردِ قولِ اللسانِ فقط، فإن هذا خلافُ المعلومِ بالاضطرارِ من دينِ الإسلامِ، فإن المنافقين

(١) البخاري (٤٢٥، ٦٤٢٣، وأخر)، ومسلم (٣٣، ٢٦٣).

يقولونها بألسنتِهم، وهم تحتَ الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار، فلابدَّ مِن قولِ القلبِ، وقولِ اللسانِ.

وتأمَّل حديثَ البطاقة[١] التي تُوضَعُ في كفةٍ، ويقابلها تسعةٌ وتسعون سجلًا، كلُّ سجل منها مدَّ البصر، فتثقلُ البطاقةُ وتطيشُ السجلاتُ، فلا يعذَّبُ، ومعلومٌ أن كلَّ موحِّد له مثلُ هذه البطاقة، وكثيرٌ منهم يدخلُ النارَ بذنوبه، ولكن السر الذي ثقَّلَ بطاقةَ ذلك الرجلِ وطاشَتْ لأجله السجلاتُ لـمَّا لم يحصُلْ لغيره مِن أرباب البطاقات انفردَتْ بطاقتُه بالثقلِ والرزانةِ.

وتأمَّل ما قام بقلبِ قاتلِ المائة[٢] مِن حقائقِ الإيمان التي لم تشغَلْه عند السياق عن السيرِ إلى القريةِ، وحملَتْه - وهو في تلك الحال - على أن جعلَ ينوءُ بصدره، ويعالجُ سكراتِ الموت، فهذا أمرٌ آخرُ، وإيمانٌ آخرُ، ولا جرمَ أن أُلحِقَ بالقرية الصالحة، وجُعِلَ من أهلها.

وقريبٌ من هذا ما قام بقلب البَغِيِّ التي رأت ذلك الكلبَ وقد اشتدَّ به العطشُ يأكل الثَرَى[٣]، فقام بقلبها ذلك الوقتَ - مع عدمِ الآلة، وعدمِ المعين، وعدمِ مَن تُرائيه بعملِها - ما حملَها على أن غرَّرَتْ بنفسها في نزولِ البئرِ، وملءِ الماءِ في خفِّها، ولم تعبأْ بتعرضها للتلفِ، وحملِها خفَّها بفيها وهو ملآنٌ، حتى أمكنها الرقيّ من البئرِ، ثم تواضعُها لهذا المخلوقِ الذي جرَتْ عادةُ الناس بضربه، فأمسكَتْ له الخفَّ بيدِها حتى شرِبَ، من غيرِ أن ترجوَ منه جزاءً ولا شكورًا، فأحرقَتْ أنوارُ هذا القَدْرِ مِن التوحيدِ ما تقدَّم منها مِن البِغاءِ، فغُفِرَ لها.

(١) الترمذي (٢٧٣٩)، وأحمد (١١/ ٥٧٠، ٦٣٧، وآخر).
(٢) البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).
(٣) البخاري (٣٣٢١، ٣٤٦٧، وآخر)، ومسلم (٢٢٤٥).

فهكذا الأعمالُ والعمّالُ عند الله، والغافلُ في غفلةٍ مِن هذا الإكسيرِ الكيماوي، الذي إذا وُضِعَ منه مثقالُ ذرةٍ على قناطيرِ مِن نحاسِ الأعمالِ قَلَبَها ذهبًا، والله المستعان.

فصل في أجناس ما يتاب منه ولا يستحق العبد اسم التائب حتى يتخلص منها

وهي اثنا عشر جنسًا مذكورة في كتابِ الله ﷻ، هي أجناسُ المحرَّمات: الكفرُ، والشركُ، والنفاقُ، والفسوقُ، والعصيانُ، والإثمُ، والعدوانُ، والفحشاءُ، والمنكرُ، والبغْي، والقولُ على الله بلا علم، واتباعُ غير سبيل المؤمنين.

فهذه الاثنا عشر جنسًا عليها مدارُ كلِّ ما حرَّم الله، وإليها انتهاءُ العالم بأسرِهم إلا أتباعَ الرسلِ صلوات الله وسلامه عليهم، وقد يكونُ في الرجلِ أكثرُها وأقلُّها، أو واحدةٌ منها، وقد يعلمُ ذلك، وقد لا يعلمُ.

فالتوبةُ النصوحُ هي بالتخلصِ منها، والتحصنِ والتحرزِ من مواقعتِها، وإنما يمكِنُ التخلصُ منها لمن عرَفَها.

فصل في مشاهد الخلق في المعصية

وهي ثلاثةَ عشرَ مشهدًا، فالأربعةُ الأُولُ للمنحرِفين، والثمانيةُ البواقي لأهل الاستقامةِ، وأعلاها المشهدُ العاشرُ.

[المشهد الأول: مشهد الحيوانية]

فأمَّا مشهدُ الحيوانية وقضاءُ الشهوة فمشهدُ الجهالِ الذين لا فرقَ بينهم وبين سائرِ الحيوان إلا في اعتدالِ القامة ونطقِ اللسان، ليس همُّهم إلا مجردَ نيلِ الشهوة بأي طريقٍ أفضَتْ إليها، فهؤلاء نفوسُهُم نفوسٌ حيوانية لم تترقَّ عنها إلى درجةِ الإنسانية فضلًا عن درجةِ الملائكة، فهؤلاء حالُهم أخسُّ من أن تُذكرَ، وهم في أحوالِهم متفاوِتون بحسبِ تفاوتِ الحيوانات التي هم على أخلاقِها وطباعِها.

والمقصود: أن أصحابَ هذا المشهدِ ليس لهم شهودٌ سوى ميلِ نفوسِهم وشهواتِهم، لا يعرفون ما وراءَ ذلك ألبتةَ.

المشهد الثاني: مشهد رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة

كمشهدِ زنادقةِ الفلاسفةِ والأطباء الذين يشهدون أن ذلك مِن لوازمِ الخلقة الإنسانيةِ، وأن تركيبَ الإنسان مِن الطبائعِ الأربع وامتزاجِها واختلاطِها، كما يَقتضي بغيَ بعضِها على بعض وخروجَه من الاعتدالِ بحسبِ اختلافِ هذه الأخلاطِ، فكذلك تركيبُه من البدنِ والنفس والطبيعة والأخلاط الحيوانية تتقاضاه آثارُ هذه الخلقة ورسوم تلك الطبيعة.

المشهد الثالث: مشهد أصحاب الجبر

وهم الذين يَشهدون أنهم مجبورون على أفعالِهم، وأنها واقعةٌ بغير قدرتِهم، بل لا يَشهدون أنها أفعالُهم ألبتةَ.

وهؤلاء أعداءُ الله حقًّا، وأولياءُ إبليس وأحباؤُه وإخوانُه، وإذا ناح منهم نائحٌ على إبليس رأيتَ من البكاءِ والحنين أمرًا عجبًا، ورأيتَ مِن ظلمِهم الأقدارَ واتهامِهم الجبَّارَ ما يبدو على فلتاتِ ألسنتِهم، وصفحاتِ وجوهِهم.

المشهد الرابع: مشهد القدرية النفاة

يَشهدون أن هذه الجناياتِ والذنوبَ هم الذين أحدثوها، وأنها واقعةٌ بمشيئتِهم دونَ مشيئة الله تعالى، وأن الله لم يقدِّرْ ذلك عليهم ولم يكتُبْه، ولا شاءَ، ولا خلَقَ أفعالَهم، وأنه لا يقدرُ أن يهديَ أحدًا ولا يضلَّه إلا بمجردِ البيان، لا أنه يلْهمُه الهدَى والضلالَ والفجورَ والتقوى فيجعل ذلك في قلبِهِ.

والشيطانُ قد رَضِيَ منهم بهذا القدرِ، فلا يؤزُّهم إلى المعاصي ذلك الأزَّ، ولا يزعجُهم إليها ذلك الإزعاجَ.

المشهد الخامس: - وهو أحد مشاهد أهل الاستقامة - مشهد الحكمة

وهو مشهدُ حكمةِ الله في تقديرِه على عبدِه ما يبغضُه سبحانه ويكرهُه، ويلومُ ويعاقبُ عليه، وأنه لو شاء لعصمَهُ منه، ولحالَ بينه وبينه، وأنه سبحانه لا يُعصَى قسرًا، وأنه لا يكون في العالم شيءٌ إلا بمشيئته: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهؤلاء يشهدون أن الله سبحانه لم يخْلُقْ شيئا عبثًا ولا سدًى، وأن له الحكمةَ البالغةَ في كل ما قدَّره وقضاه من خيرٍ وشرٍّ، وطاعةٍ ومعصيةٍ، وحكمٍ باهرةٍ تعجزُ العقولُ عن الإحاطة بكنهها، وتكلُّ الألسنُ عن التعبير عنها.

فمصدرُ قضائِه وقدرِه لما يبغضُه ويسخطُه اسمُه «الحكيمُ» الذي بهرَتْ حكمتُه الألبابَ، وقد قال تعالى لملائكته لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] فأجابهم سبحانه بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فلله سبحانه في ظهورِ المعاصي والذنوبِ والجرائمِ وترتُّبِ آثارِها مِن الآياتِ والحكمِ، وأنواعِ التعريفاتِ إلى خلقه، وتنويعِ آياته، ودلائلِ ربوبيته ووحدانيته، وإلهيتِه، وحكمتِه، وعزتِه، وتمامِ ملكه، وكمالِ قدرته، وإحاطةِ علمه - ما يشهدُهُ أولو البصائرِ عيانًا ببصائرِ قلوبِهم، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، إن هي إلا حكمتُك الباهرةُ، وآياتُك الظاهرةُ.

فكم من آيةٍ في الأرض بينةٍ دالةٍ على الله، وعلى صدقِ رسلِه، وعلى أن لقاءَه حق- كان سببُها معاصي بني آدمَ وذنوبَهم، كآيتِه في إغراقِ قومِ نوحٍ، وعلوِّ الماء على رءوس الجبال حتى أغرقَ جميعَ أهل الأرض ونجَّى أولياءَه وأهلَ معرفتِه وتوحيدِه، فكم في ذلك مِن آيةٍ وعبرةٍ ودلالةٍ باقيةٍ على ممرِّ الدهورِ؟!

وأمَّا حظُّ العبد في نفسه، وما يخصُّه من شهود هذه الحكمة فبحسبِ استعدادِهِ وقوةِ بصيرتِه، وكمالِ علمِه ومعرفتِه بالله وأسمائه وصفاته، ومعرفتِه بحقوقِ العبودية والربوبية، وكلُّ مؤمنٍ له من ذلك شِرْبٌ معلومٌ، ومقامٌ لا يتعداه ولا يتخطاه، والله الموفق والمعين.

المشهد السادس: مشهد التوحيد

وهو أن يشهدَ انفرادَ الربِّ تبارك وتعالى بالخلقِ والحكمِ، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا تتحرَكُ ذرةٌ إلا بإذنه، وأن الخلقَ مقهورون تحت قبضتِه، وأنه ما مِن قلبٍ إلا وهو بين إصبعين من أصابعه، إن شاء أن يقيمَهُ أقامه، وإن شاء أن يزيغَهُ أزاغَهُ.

والمقصودُ: أن العبدَ يحصُلُ له هذا في المشهد مِن مطالعةِ الجناياتِ والذنوب، وجريانِها عليه وعلى الخليقةِ بتقديرِ العزيزِ الحكيمِ، وأنه لا عاصمَ من غضبِه وأسبابِ سخطِه إلا هو، ولا سبيلَ إلى طاعتِه إلا بمعونتِه، ولا وصولَ إلى مرضاتِه إلا بتوفيقِه.

المشهد السابع: مشهد التوفيق والخذلان

وهو مِن تمام هذا المشهدِ[1] وفروعه، ولكن أُفرِدَ بالذكرِ لحاجةِ العبدِ إلى شهوده وانتفاعِه به، وقد أجمع العارفون بالله أن التوفيقَ هو ألَّا يكلَكَ اللهُ إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يُخليَ بينك وبين نفسك.

---

(١) أي: مشهد التوحيد السابق.

فالعبيدُ متقلِّبون بين توفيقِه وخذلانِه، بل العبدُ في الساعة الواحدة ينالُ نصيبَه من هذا وهذا، فيُطيعُه ويرضيه ويذكرُه ويشكرُه بتوفيقِه له، ثم يَعصِيه ويخالفُه ويُسخطُه ويغفلُ عنه بخذلانِه له، فهو دائرٌ بين توفيقِه وخذلانِه، فإن وفَّقَه فبفضلِه ورحمتِه، وإن خذلَهُ فبعدلِه وحكمتِه.

فمتى شهدَ العبدُ هذا المشهدَ وأعطاه حقَّه عَلِمَ شدةَ ضرورتِه وحاجتِه إلى التوفيقِ في كل نفسٍ وكل لحظةٍ وطرفةِ عين، وأن إيمانَه وتوحيدَه بيده تعالى، لو تخلَّى عنه طرفةَ عين لثُلَّ عرشُ توحيده، ولخرَّت سماءُ إيمانه على الأرض، وأن الممسكَ له هو مَن يُمسكُ السماءَ أن تقعَ على الأرض إلا بإذنه.

المشهد الثامن: مشهد الأسماء والصفات

وهو من أجلِّ المشاهدِ، وهو أعلى مما قبله وأوسعُ، والمَطْلَعُ على هذا المشهدِ: معرفةُ تعلقِ الوجودِ خلقًا وأمرًا بالأسماء الحُسْنَى، والصفاتِ العُلا، وارتباطِه بها، وإن كان العالمُ بما فيه مِن بعض آثارِها ومقتضياتِها.

فمن أسمائه سبحانه: الغفارُ، التوابُ، العفوُ، فلابدَّ لهذه الأسماء من متعلقاتٍ، ولابدَّ مِن جنايةٍ تُغفرُ، وتوبةٍ تُقبلُ، وجرائمَ يُعفى عنها، ولابدَّ لاسمه الحكيمِ من متعلقٍ يَظهرُ فيه حكمُه، إذ اقتضاءُ هذه الأسماءِ لآثارها كاقتضاء اسمِ الخالقِ الرازقِ المعطيِ المانعِ، للمخلوقِ والمرزوقِ والمُعطَى والممنوعِ، وهذه الأسماء كلها حُسْنى.

فمن تأمَّل سريانَ آثارِ الأسماء والصفات في العالم وفي الأمر تبيَّن له أن مصدرَ قضاء هذه الجناياتِ من العبيد، وتقديرَها هو من كمالِ الأسماءِ والصفات والأفعال. وغاياتُها أيضا: مُقتضَى حمدِه ومجدِه، كما هو مُقتضَى ربوبيتِه وإلهيتِه.

المشهد التاسع: مشهد زيادة الإيمان وتعدد شواهده

وهذا مِن ألطفِ المشاهِدِ، وأخصِّها بأهل المعرفة، ولعل سامعَه يُبادرُ إلى إنكاره، ويقول: كيف يشهدُ زيادةَ الإيمان مِن الذنوبِ والمعاصي؟ ولاسيما ذنوب العبد ومعاصيه، وهل ذلك إلا منقصٌ للإيمان، فإنه بإجماعِ السلف يزيدُ بالطاعةِ، وينقصُ بالمعصية.

فاعلَمْ أن هذا حاصلٌ مِن التفاتِ العارفِ إلى الذنوبِ والمعاصي منه ومِن غيرِه وإلى ترتُّبِ آثارِها عليها، وترتُّبُ هذه الآثارِ عليها عَلَمٌ مِن أعلامِ النبوة، وبرهانٌ من براهينِ صدقِ الرسل، وصحةِ ما جاءوا به.

فإن الرسلَ صلوات الله وسلامه عليهم أمروا العبادَ بما فيه صلاحُ ظواهرِهم وبواطنِهم، في معاشِهم ومعادِهم، ونهَوهم عما فيه فسادُ ظواهرِهم وبواطنِهم، في المعاشِ والمعادِ، وأخبروهم عن الله ﷻ أنه يحبُّ كذا وكذا، ويُثيبُ عليه بكذا وكذا، وأنه يُبغضُ كَيْتَ وكَيْتَ، ويُعاقِبُ عليه بكَيْتَ وكَيْتَ، وأنه إذا أُطِيعَ بما أَمَرَ به شَكَرَ عليه بالإمدادِ والزيادةِ والنعمِ في القلوبِ والأبدانِ والأموالِ، ووَجَدَ العبدُ زيادتَه وقوتَه في حالِه كلِّها، وأنه إذا خُولِفَ أمرُه ونهيُه ترتَّبَ عليه مِن النقصِ، والفساد، والضعف، والذلِّ والمهانة، والحقارةِ، وضيقِ العيش وتنكدِ الحياة - ما ترتَّبَ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤].

وآثارُ الحسناتِ والسيئاتِ في القلوبِ والأبدانِ والأموالِ أمرٌ مشهود في العالم، لا ينكره ذو عقلٍ سليم، بل يعرِفُه المؤمنُ والكافرُ، والبرُّ والفاجرُ.

فشهودُ العبد نقصَ حالِه إذا عصَى ربَّه، وتغيرَ القلوبِ عليه، وجفولَها منه، وانسدادَ الأبواب في وجهه، وتوعرَ المسالك عليه، وهوانَه على أهلِ بيتِه وأولادِه وزوجتِه وإخوانِه، وتَطَلُّبَه ذلك حتى يعلمَ مِن أين أُتِيَ، ووقوعَهُ على السببِ الموجِبِ

لذلك - مما يقوي إيمانَه، فإن أقلعَ وباشَرَ الأسبابَ التي تُفضي به إلى ضدِّ هذه الحال رأى العزَّ بعد الذلِّ، والغنى بعد الفقرِ، والسرورَ بعدَ الحزنِ، والأمنَ بعدَ الخوفِ، والقوةَ في قلبِه بعدَ ضعفِه ووهنِه؛ ازداد إيمانًا مع إيمانه.

المشهد العاشر: مشهد الرحمة

فإن العبدَ إذا وقعَ في الذنبِ خرجَ من قلبِه تلك الغلظةُ والقسوةُ والكيفيةُ الغضبيةُ التي كانت عنده لمن صدر منه ذنبٌ، حتى لو قدرَ عليه لأهلكَهُ، وربما دعا اللهَ عليه أن يهلكَه ويأخذَه، غضبًا منه لله، وحرصًا على ألَّا يعصيَ، فلا يجدُ في قلبه رحمةً للمذنبين الخاطئين، ولا يراهم إلا بعينِ الاحتقارِ والازدراء، ولا يذكرُهم إلا بلسانِ الطعنِ فيهم، والعيبِ لهم والذم، فإذا جرَتْ عليه المقاديرُ وخُلِّيَ ونفسُه استغاثَ اللهَ والتجأَ إليه، وتململَ بين يديه تململَ السليم، ودعاه دعاءَ المضطر، فتبدلَتْ تلك الغلظةُ على المذنبين رقَّةً، وتلك القساوةُ على الخاطئين رحمةً ولينًا، مع قيامِه بحدودِ الله، وتبدَّلَ دعاؤُه عليهم دعاءً لهم، وجعل لهم وظيفةً مِن عمرِه، يسأل الله أن يغفرَ لهم.

فما أنفعَه له من مشهدٍ، وما أعظمَ جدواه عليه! والله أعلم.

[المشهد الحادي عشر: مشهد العجز والضعف]

فيورِثُه ذلك: المشهدَ الحادي عشر، وهو مشهدُ العجزِ والضعف، وأنه أعجزُ شيءٍ عن حفظِ نفسِه وأضعفُه، وأنه لا قوةَ له ولا قدرةَ ولا حولَ إلا بربه، فيشهدُ قلبَه كريشةٍ ملقاةٍ بأرض فلاة تقلِّبُها الرياحُ يمينًا وشمالًا.

وهكذا حالُ العبدِ مُلقًى بين الله وبين أعدائِه مِن شياطينِ الإنس والجن، فإن حماه منهم وكفَّهم عنه لم يجدوا إليه سبيلًا، وإن تخلَّى عنه ووكَلَه إلى نفسِه طرفةَ عين لم ينقسِمْ عليهم، بل هو نصيبُ مَن ظفرَ به منهم.

والمقصودُ: أن هذا المشهدَ يُعرِّفُ العبدَ أنه عاجزٌ ضعيف، فتزولُ عنه رعوناتُ الدعاوى والإضافاتُ إلى نفسه، ويعلمُ أنه ليس له مِن الأمر شيءٌ، وليس بيده شيءٌ، إن هو إلا محضُ القهرِ والعجز والضعف.

[المشهد الثاني عشر: مشهد الذل والانكسار والخضوع والافتقار للرب ﷻ]

فحينئذٍ يطلعُ منه على المشهدِ الثاني عشر، وهو مشهدُ الذلِّ والانكسار والخضوع والافتقار للربِّ ﷻ، فيَشهدُ في كلِّ ذرةٍ من ذراته الباطنةِ والظاهرةِ ضرورةً تامةً وافتقارًا تامًّا إلى ربِّه ووليِّه، ومَن بيده صلاحُه وفلاحُه، وهداه وسعادتُه.

وهذه الحالُ التي تحصلُ لقلبه لا تنالُ العبارةُ حقيقتَها، وإنما تُدركُ بالحصولِ، فيحصلُ لقلبه كسرةٌ خاصةٌ لا يشبهها شيءٌ، بحيث يرى نفسَه كالإناء المرضوضِ[1] تحت الأرجل، الذي لا شيءَ فيه، ولا به ولا منه، ولا فيه منفعةٌ، ولا يُرغبُ في مثلِه، وأنه لا يصلحُ للانتفاع إلا بجبرٍ جديدٍ مِن صانعِه وقيِّمِه، فحينئذٍ يستكثرُ في هذا المشهدِ ما مِن ربِّه إليه مِن الخيرِ، ويرى أنه لا يستحقُّ قليلًا منه ولا كثيرًا، فأيُّ خيرٍ ناله من الله استكثَرَه على نفسِه، وعلِمَ أن قدرَه دونه، وأن رحمةَ ربه هي التي اقتضَتْ ذكرَه به، وسياقتَه إليه، واستقلَّ ما مِن نفسِه مِن الطاعاتِ لربه، ورآها ولو ساوَتْ طاعاتِ الثقلَينِ مِن أقلِّ ما ينبغي لربه عليه، واستكثَرَ قليلَ معاصيه وذنوبِه، فإن الكسرةَ التي حصلت لقلبه أوجبَتْ له هذا كلَّه.

فما أقربَ الجبرَ من هذا القلب المكسور! وما أدنى النصرَ والرحمةَ والرزقَ منه! وما أنفعَ هذا المشهدَ له وأجداه عليه!

---

(١) المرضوض: أي المكسور.

[المشهد الثالث عشر: مشهد العبودية والمحبة والشوق إلى لقائه والابتهاج به]

فإذا استبصرَ في هذا المشهدِ، وتمكَّن مِن قلبِه، وباشَرَه وذاق طعمَه وحلاوتَه ترقَّى منه إلى المشهدِ الثالث عشر، وهو الغايةُ التي شمَّر إليها السالكون، وأمَّها القاصدون، ولحظ إليها العاملون، وهو مشهدُ العبوديةِ والمحبة، والشوقِ إلى لقائه، والابتهاجِ به، والفرحِ والسرور به، فتقرُّ به عينُه، ويسكنُ إليه قلبُه، وتطمئنُّ إليه جوارحُه، ويستولي ذكرُه على لسانِ محبِّه وقلبِه، فتصيرُ خطراتُ المحبة مكانَ خطراتِ المعصيةِ، وإراداتُ التقرُّبِ إليه وإلى مرضاتِه مكانَ إرادةِ معاصيه ومساخطِهِ، وحركاتُ اللسانِ والجوارح بالطاعات مكانَ حركاتِها بالمعاصي، قد امتلأ قلبُهُ من محبتِه، ولهجَ لسانُه بذكرِه، وانقادَتِ الجوارحُ لطاعتِه، فإن هذه الكسرةَ الخاصةَ لها تأثيرٌ عجيبٌ في المحبةِ لا يُعبَّرُ عنه.

ويُحكى عن بعض العارفين أنه قال: دخلتُ على الله من أبوابِ الطاعات كلِّها، فما دخلتُ من باب إلا رأيتُ عليه الزحامَ، فلم أتمكن من الدخولِ، حتى جئتُ بابَ الذلِّ والافتقار، فإذا هو أقربُ بابٍ إليه وأوسعُه، ولا مزاحمَ فيه ولا معوقَ، فما هو إلا أن وضعتُ قدمي في عتبتِه، فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه.

والقصد: أن هذه الذلةَ والكسرةَ الخاصةَ تدخلُه على الله، وترميه على طريق المحبةِ، فيُفتحُ له منها بابٌ لا يُفتحُ له مِن غير هذه الطريق، وإن كانت طرقُ سائر الأعمالِ والطاعاتِ تَفتحُ للعبد أبوابًا من المحبة، لكن الذي يُفتحُ منها مِن طريق الذلِّ والانكسار والافتقار وازدراء النفس، ورؤيتِها بعينِ الضعفِ والعجز والعيب والنقص والذم، بحيث يُشاهدُها ضيعةً وعجزًا، وتفريطًا وذنبًا وخطيئةً - نوعٌ آخرُ وفتحٌ آخرُ.

[منزلة الإنابة]

فإذا استقرَّت قدمُهُ في منزلِ التوبة نَزَلَ بعدَه منزلَ الإنابة، وقد أمر الله تعالى بها في كتابِه، وأثنى على خليلِه بها، فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

والإنابةُ إنابتان: **إنابةٌ لربوبيته**، وهي إنابةُ المخلوقاتِ كلها، يشتركُ فيها المؤمنُ والكافرُ، والبرُّ والفاجرُ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣].

والإنابةُ الثانية: **إنابةُ أوليائه**: وهي إنابةٌ لإلهيتِه إنابةَ عبوديةٍ ومحبةٍ، وهي تتضمَّنُ أربعةَ أمورٍ: محبتَه، والخضوعَ له، والإقبالَ عليه، والإعراضَ عما سواه.

وفي اللفظةِ معنى الإسراعِ والرجوعِ والتقدمِ، والمنيبُ إلى الله: المسرعُ إلى مرضاته، الراجعُ إليه كلَّ وقت، المتقدمُ إلى محابِّه.

وهي ثلاثةُ أشياء: الرجوعُ إلى الحق إصلاحًا كما رَجَعَ إليه اعتذارًا، والرجوعُ إليه وفاءً كما رَجَعَ إليه عهدًا، والرجوعُ إليه حالًا كما رجعْتَ إليه إجابةً:

- لما كان التائبُ قد رجعَ إلى الله بالاعتذارِ والإقلاعِ عن معصيته كان من تتمةِ ذلك رجوعُه إليه بالاجتهادِ، والنصح في طاعته، كما قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، فلا تنفع توبةٌ وبَطالَةٌ.

- وكذلك الرجوعُ إليه بالوفاءِ بعهدِه، كما رجعتَ إليه عندَ أخذ العهدِ عليك، فرجَعْتَ إليه بالدخولِ تحتَ عهدِه أولًا، فعليك بالرجوعِ بالوفاءِ بما عاهدتَه عليه ثانيًا، والدينُ كلُّه عهدٌ ووفاءٌ، فإن الله أخذ عهدَه على جميعِ المكلفين بطاعته، ومدَحَ الموفين بعهدِه، وأخبَرَ بما لهم عنده مِن الأجرِ، فقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

- «والرجوعُ إليه حالًا كما رجعْتَ إليه إجابةً»: أي هو سبحانه قد دعاك فأجبتَه بلبَيْك وسَعْدَيْك قولًا، فلابدَّ من الإجابة حالًا تُصدِّقُ به المقالَ، فإن الأحوالَ تصدِّقُ الأقوالَ أو تكذِّبُها، وكلُّ قول فلصدقِه وكذبِه شاهدٌ مِن حالِ قائلِه، فكما رجعتَ إلى الله إجابةً بالمقال، فارجع إليه إجابةً بالحال.

فصل [من علامات الإنابة]

ومن علاماتِ الإنابة: تركُ الاستهانةِ بأهل الغفلة، والخوفُ عليهم، مع فتحِك بابَ الرجاء لنفسِك، فترجو لنفسك الرحمةَ، وتخشَى على أهل الغفلةِ النقمةَ، ولكن ارجُ لهم الرحمةَ، واخشَ على نفسِك النقمةَ، فإن كنتَ لابد مستهينًا بهم ماقتًا لهم لانكشافِ أحوالِهم لك، ورؤية ما هم عليه - فكن لنفسِك أشدَّ مقتًا منك لهم، وكن أرجَى لهم لرحمة الله منك لنفسك.

[منزلة التذكر]

ثم ينزلُ القلبُ منزلَ التذكرِ وهو قرينُ الإنابة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]، وقال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨]. وهو من خواصِ أولي الألباب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

والتذكرُ والتفكرُ منزلان يُثمرانِ أنواعَ المعارف، وحقائقَ الإيمان والإحسان، والعارفُ لا يزال يعودُ بتفكرِه على تذكرِه، وبتذكرِه على تفكرِه، حتى يفتحَ قفلَ قلبه بإذنِ الفتاح العليم.

والتذكُّر تفعُّل من الذكر، وهو ضدُّ النسيانِ، وهو حضورُ صورةِ المذكور العلمية في القلبِ، واختير له بناءُ التفعل لحصوله بعد مهلة وتدرج، كالتبصر والتفهم والتعلم.

فمنزلةُ التذكرِ من التفكرِ منزلةُ حصول الشيء المطلوب بعد التفتيشِ عليه؛ ولهذا كانت آياتُ الله المتلوةُ والمشهودةُ ذِكرَى، كما قال في المتلوة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [غافر: ٥٣، ٥٤].

[منزلة الاعتصام]

ثم ينزلُ القلبُ منزلَ الاعتصام، وهو نوعان: اعتصامٌ بالله، واعتصامٌ بحبل الله، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

والاعتصام افتعال من العصمةِ، وهو التمسكُ بما يعصمُك ويمنعُك من المحذورِ والمخوف، فالعصمةُ: الحميةُ، والاعتصامُ: الاحتماءُ، ومنه سُمِّيت القلاعُ: العواصمَ؛ لمنعها وحمايتها.

ومدارُ السعادةِ الدنيوية والأخروية على الاعتصامِ بالله، والاعتصامِ بحبله، ولا نجاةَ إلا لمن تمسَّكَ بهاتين العصمتَينِ.

فالاعتصامُ بحبل الله يُوجِبُ له الهدايةَ واتباعَ الدليل، والاعتصامُ بالله يُوجِبُ له القوةَ والعدة والسلاح والمادة التي يستلئم بها في طريقِه:

- **الاعتصام بحبل الله:** هو المحافظةُ على طاعتِه، مراقبًا لأمره. ويريدُ بمراقبة الأمر: القيامُ بالطاعةِ لأجلِ أن الله أَمَرَ بها وأحبَّها، لا لمجرد العادة، أو لعلةٍ باعثة سوى امتثال الأمر.

وهذا هو الإيمانُ والاحتسابُ المشارُ إليه في كلامِ النبي ﷺ، كقوله: **«مَن صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابا»**[1]، و**«مَن قامَ ليلةَ القدرِ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له»**[2].

(١) البخاري (٣٨، ٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠).
(٢) البخاري (١٩٠١، ٢٠١٤، وأخر)، ومسلم (٧٦٠).

فالصيامُ والقيامُ: هو الطاعةُ.

والإيمانُ: مراقبةُ الأمرِ.

وإخلاصُ الباعث: هو أن يكونَ الإيمانُ الآمِرَ، لا شيءَ سواه.

والاحتسابُ: رجاءُ ثوابِ الله.

- **وأما الاعتصامُ به**: فهو التوكلُ عليه، والامتناعُ به، والاحتماءُ به، وسؤالُه أن يحميَ العبدَ ويمنعَه، ويعصمَه ويدفعَ عنه.

[منزلة الفرار]

قال الله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وحقيقةُ الفرار: الهربُ من شيء إلى شيء، وهو نوعان: فرارُ السعداء، وفرارُ الأشقياء. ففرارُ السعداء: الفرارُ إلى الله عز وجل، وفرارُ الأشقياء: الفرارُ منه لا إليه.

وأما الفرارُ منه إليه ففرارُ أوليائه، قال ابن عباس ﷺ في قوله تعالى ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾: فِرُّوا منه إليه، واعملوا بطاعتِه. وقال سهل بن عبد الله: فرُّوا مما سوى الله إلى الله. وقال آخرون: اهرُبُوا مِن عذاب الله إلى ثوابِه بالإيمانِ والطاعةِ.

[منزلة الرياضة]

هي تمرينُ النفس على الصدقِ والإخلاصِ. وهذا يُراد به أمران:

- تمرينُها على قبولِ الصدقِ إذا عرضَهُ عليها في أقوالِه وأفعاله وإرادته، فإذا عرضَ عليها الصدقَ قبلَتْه وانقادَتْ له وأذعنَتْ له.

- **والثاني**: قبولُ الحقِّ ممن عرضَه عليه، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

فلا يكفي صدقُك، بل لابدَّ مِن صدقِك وتصديقِك للصادقين، فكثيرٌ من الناس يصدقُ، ولكن يمنعُه من التصديقِ كبرٌ أو حسدٌ، أو غيرُ ذلك.

[منزلة الخوف]

وهي من أجلِّ منازلِ الطريق وأنفعِها للقلب، وهي فرضٌ على كل أحد، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقال تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

وفي المسند والترمذي(١): «عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله، قولُ الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الذي يزني، ويشربُ الخمرَ، ويسرقُ؟ قال: **لا، يا ابنةَ الصديق، ولكنه الرجلُ يصومُ ويصلِّي ويتصدَّقُ ويخافُ ألَّا يقبلَ منه**».

و«الوجل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرهبة» ألفاظٌ متقاربةٌ غيرُ مترادفة:

- **الخوفُ**: اضطرابُ القلب وحركتُه مِن تذكرِ المخوفِ.
- **والخشيةُ**: خوفٌ مقرونٌ بمعرفةٍ.
- **وأمَّا الرهبةُ**: فهي الإمعانُ في الهربِ من المكروهِ.
- **وأمَّا الوجلُ**: فرجفانُ القلبِ وانصداعُه لذكرِ مَن يخافُ سلطانَه وعقوبتَه، أو لرؤيتِه.
- **وأمَّا الهيبةُ**: فخوفٌ مُقارِنٌ للتعظيمِ والإجلال.

(١) أحمد (٤٢/ ١٥٦، ٤٦٥)، الترمذي (٣١٧٥).

فالخوفُ لعامة المؤمنين، والخشيةُ للعلماء العارفين، والهيبةُ للمحبين، والإجلالُ للمقرَّبين، وعلى قدرِ العلمِ والمعرفةِ يكون الخوفُ والخشيةُ، كما قال النبي ﷺ: «**إني لأعلمُكم بالله، وأشدُّكم له خشيةً**»(١).

فصاحبُ الخوف يلتجئُ إلى الهربِ والإمساكِ، وصاحبُ الخشية يلتجئُ إلى الاعتصامِ بالعلمِ، ومثلُهما مثلُ مَن لا علم له بالطب ومثلُ الطبيب الحاذق، فالأولُ يلتجئُ إلى الحميةِ والهربِ، والطبيبُ يلتجئُ إلى معرفته بالأدوية والأدواء.

والخوفُ ليس مقصودًا لذاته، بل هو مقصودٌ لغيره قصدَ الوسائل؛ ولهذا يزولُ بزوال المخوفِ، فإن أهلَ الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والخوفُ المحمودُ الصادقُ: ما حالَ بين صاحبِه وبين محارمِ الله ﷻ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأسُ والقنوطُ.

[فصل القلب كالطائر]

القلبُ في سيرِه إلى الله ﷻ بمنزلةِ الطائرِ، فالمحبةُ رأسُه، والخوفُ والرجاء جناحاه، فمتى سَلِمَ الرأسُ والجناحان فالطائر جيدُ الطيران، ومتى قُطِعَ الرأسُ مات الطائرُ، ومتى فَقَدَ الجناحان فهو عرضةٌ لكل صائدٍ وكاسرٍ، ولكن السلف استحبُّوا أن يقوى في الصحةِ جناح الخوفِ على جناحِ الرجاءِ، وعندَ الخروجِ مِن الدنيا يقوى جناح الرجاءِ على جناحِ الخوفِ.

---

(١) البخاري (٦١٠١، ٧٣٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

[منزلة الإشفاق]

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٥-٢٧].

الإشفاقُ: رقةُ الخوف، وهو خوفٌ برحمةٍ مِن الخائفِ لمن يخافُ عليه، فنسبتُه إلى الخوف نسبةُ الرأفةِ إلى الرحمةِ، فإنها ألطفُ الرحمة وأرقُّها.

[منزلة الخشوع]

قال الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦].

والخشوعُ في أصل اللغة: الانخفاضُ، والذلُّ، والسكونُ.

والخشوعُ: قيامُ القلب بين يدي الربِّ بالخضوعِ والذلِّ، والجمعيةِ عليه.

فمِن علاماتِه: أن العبدَ إذا خُولِفَ ورُدَّ عليه بالحقِّ استقبلَ ذلك بالقبولِ والانقيادِ.

وأجمع العارفون على أن الخشوعَ محلُّهُ القلبُ، وثمرتُهُ على الجوارح، وهي تُظهِرُه، وقال النبي ﷺ: «**التقوَى هاهنا**» وأشار إلى صدرِه ثلاثَ مرات[1].

ورأى عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه رجلًا طأطأ رقبتَه في الصلاةِ، فقال: يا صاحبَ الرقبةِ، ارفَعْ رقبتَك؛ ليس الخشوعُ في الرقابِ، إنما الخشوعُ في القلوب.

---

(١) مسلم (٢٥٦٤).

[منزلة الإخبات]

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]، ثم كشَفَ عن معناهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٥].

و«الخبت» في أصل اللغة: المكانُ المنخفضُ من الأرض. وبه فسَّرَ ابنُ عباس رضي الله عنهما وقتادة لفظ ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾، وقالا: هم المتواضِعون. وقال مجاهد: المخبتُ: المطمئنُّ إلى الله عز وجل، والخبت: المكانُ المطمئنُ من الأرض. وقال الأخفش: الخاشعون.

وهذه الأقوالُ تدورُ على معنيَين: التواضعِ، والسكونِ إلى الله عز وجل؛ ولذلك عُدِّيَ بـ«إلى» تضمينًا لمعنى الطمأنينةِ والإنابة والسكون إلى الله.

ولما كان الإخباتُ أولَ مقام يتخلَّصُ فيه السالكُ من الترددِ الذي هو نوع غفلةٍ وإعراضٍ، والسالكُ مسافرٌ إلى ربه، سائرٌ إليه على مدى أنفاسِه، لا ينتهي مسيرُه إليه ما دام نَفَسُهُ يصحبُه - شُبِّهَ حصولُ الإخبات له بالماء العذب الذي يَرِدُه المسافرُ على ظمأٍ وحاجةٍ في أول مناهلِه، فيرويه موردُه، ويزيل عنه خواطرَ ترددِه في إتمام سفرِه، أو رجوعِه إلى وطنِه لمشقةِ السفرِ، فإذا وردَ ذلك الماءَ زال عنه التردُّدُ وخاطِرُ الرجوعِ، كذلك السالكُ إذا وردَ موردَ الإخبات تخلَّصَ من الترددِ والرجوعِ، ونزلَ أولَ منازلِ الطمأنينة بسفره، وجدَّ في السيرِ.

[منزلة الزهد]

قال الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ

وَرِضْوَانٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [يونس: ٢٤].

والقرآنُ مملوءٌ من التزهيدِ في الدنيا، والإخبارِ بخستِها، وقلتِها وانقطاعِها، وسرعةِ فنائِها، والترغيبِ في الآخرةِ، والإخبارِ بشرفِها ودوامِها.

فإذا أراد اللهُ بعبدٍ خيرًا أقام في قلبه شاهدًا يُعاينُ به حقيقةَ الدنيا والآخرة، ويؤثِرُ منهما ما هو أولى بالإيثارِ.

وسمعتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول: الزهدُ تركُ ما لا ينفعُ في الآخرة، والورعُ ترك ما تخافُ ضررَه في الآخرة. وهذه العبارةُ مِن أحسنِ ما قيل في الزهدِ والورع وأجمعِها.

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهدُ على ثلاثةِ أوجهٍ:

– **الأول**: تركُ الحرامِ، وهو زهدُ العوامِّ.

– **والثاني**: تركُ الفضولِ من الحلالِ، وهو زهدُ الخواصِّ.

– **والثالث**: تركُ ما يشغلُ عن الله، وهو زهدُ العارفين.

وهذا الكلامُ مِن الإمام أحمد مِن أجمعِ الكلام، وهو يدلُّ على أنه ﷺ مِن هذا العلم بالمحلِّ الأعلى، وقد شهد الشافعيُّ رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء، أحدُها الزهدُ.

والذي أجمع عليه العارفون: أن الزهدَ سفرُ القلب مِن وطنِ الدنيا، وأخذه في منازلِ الآخرة. وعلى هذا صنفَ المتقدمون كتبَ الزهد، كالزهد لعبد الله بن المبارك، وللإمام أحمد، ولوكيع، ولهناد بن السري، ولغيرهم.

ومتعلقُهُ: ستةُ أشياء لا يستحقُّ العبدُ اسمَ الزهد حتى يزهدَ فيها، وهي: المالُ، والصورُ، والرياسةُ، والناسُ، والنفسُ، وكلُّ ما دون الله.

وليس المرادُ رفضَها، فقد كان سليمانُ وداودُ - عليهما السلام - مِن أزهدِ أهلِ زمانِهما ولهما مِن المالِ والمُلْكِ والنساءِ ما لهما، وكان نبيُّنا محمد ﷺ من أزهدِ البشرِ على الإطلاقِ وله تسعُ نسوةٍ، وكان عليُّ بن أبي طالب وعبدُ الرحمن بن عوف والزبيرُ وعثمانُ ﷺ من الزهادِ مع ما كان لهم مِن الأموالِ.

ومِن أحسنِ ما قيل في الزهدِ كلامُ الحسنِ أو غيرِه: ليس الزهدُ في الدنيا بتحريمِ الحلالِ، ولا إضاعةِ المالِ، ولكن أن تكونَ بما في يد الله أوثقُ منك بما في يدك، وأن تكونَ في ثوابِ المصيبةِ - إذا أُصِبْتَ بها - أرغبُ منك فيها لو لم تُصِبْك.

[منزلة الورع]

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر: ٤]، قال قتادة ومجاهد: نفسَك فطهِّرْ مِن الذنبِ. فكنَّى عن النفسِ بالثوبِ، وهذا قولُ إبراهيمَ النخعيِّ والضحاكِ، والشعبيِّ، والزهريِّ، والمحققين مِن أهلِ التفسير.

والمقصودُ: أن «الورع» يطهِّرُ دنسَ القلبِ ونجاستِه، كما يطهِّرُ الماءُ دنسَ الثوبِ ونجاستَه، وبين الثيابِ والقلوبِ مناسبةٌ ظاهرةٌ وباطنةٌ؛ ولذلك تدلُّ ثيابُ المرءِ في المنامِ على قلبِه وحالِه، ويؤثِّرُ كلٌّ منهما في الآخرِ؛ ولهذا نُهِيَ عن لباسِ الحريرِ والذهبِ، وجلودِ السباع، لما تؤثِّرُ في القلبِ من الهيئةِ المنافيةِ للعبوديةِ والخشوعِ، وتأثيرُ القلبِ والنفسِ في الثيابِ أمرٌ خفيٌّ يعرفه أهلُ البصائر: مِن نظافتِها ودنسِها ورائحتِها، وبهجتِها وكسفتِها، حتى إن ثوبَ البَرِّ ليُعرَفُ من ثوبِ الفاجرِ وليسا عليهما.

وقد جمعَ النبيُّ ﷺ الورعَ كلَّه في كلمةٍ واحدة، فقال: «**مِن حسنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يعنيه**»[1]، فهذا يعمُّ التركَ لما لا يعني مِن الكلامِ، والنظرِ، والاستماعِ، والبطشِ، والمشيِ، والفكرِ، وسائرِ الحركاتِ الظاهرةِ والباطنةِ، فهذه الكلمةُ كافيةٌ شافيةٌ في الورع.

فصل [طريق مختصرة موصلة إلى الرفيق الأعلى]

الخوفُ يُثمرُ الورعَ والاستعانة وقصر الأمل، وقوةُ الإيمانِ باللقاء تُثمرُ الزهدَ، والمعرفةُ تُثمرُ المحبةَ والخوف والرجاء، والقناعةُ تُثمرُ الرضا، والذكرُ يُثمرُ حياةَ القلب، والإيمانُ بالقدر يُثمرُ التوكلَ، ودوامُ تأمل الأسماءِ والصفاتِ يُثمرُ المعرفةَ، والورعُ يُثمرُ الزهدَ أيضا، والتوبةُ تُثمرُ المحبةَ أيضًا، ودوامُ الذكر يُثمرُها، والرضا يُثمرُ الشكرَ، والعزيمةُ والصبرُ يُثمران جميعَ الأحوالِ والمقامات، والإخلاصُ والصدقُ كلٌّ منهما يُثمرُ الآخرَ ويقتضيه، والمعرفةُ تُثمرُ الخلقَ، والفكرُ يُثمرُ العزيمةَ، والمراقبةُ تُثمرُ عمارةَ الوقتِ وحفظَ الأيام والحياءَ والخشيةَ والإنابةَ، وإماتةُ النفس وإذلالُها وكسرُها يوجِبُ حياةَ القلب وعزَّه وجبرَهُ، ومعرفةُ النفس ومقتُها يوجِبُ الحياءَ من الله ﷻ واستكثارَ ما منه واستقلالَ ما منك من الطاعات، ومحوُ أثرِ الدعوى من القلب واللسان وصحةُ البصيرة تُثمرُ اليقينَ، وحسنُ التأملِ لما ترى وتسمَعُ مِن الآيات المشهودةِ يُثمرُ صحةَ البصيرة.

وملاكُ ذلك كله أمران:

- أحدهما: أن تنقلَ قلبَك مِن وطن الدنيا فتسكِنُه في وطن الآخرة.
- ثم تُقبِلُ به كله على معاني القرآنِ واستجلائِها وتدبُّرها، وفهمِ ما يُرادُ منه، وما نَزَلَ لأجلِه، وأخذِ نصيبِك وحظِّك من كلِّ آيةٍ من آياته، وتُنْزِلها على داءِ قلبِك.

(١) الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦).

فهذه طريقٌ مختصرةٌ قريبةٌ سهلةٌ موصلةٌ إلى الرفيق الأعلى، آمنةٌ لا يلحقُ سالكَها خوفٌ ولا عطبٌ، ولا جوعٌ ولا عطشٌ، ولا فيها آفةٌ مِن آفات سائر الطريق ألبتةَ، وعليها من الله حارسٌ وحافظٌ يكلأُ السالكين فيها ويحمِيهم، ويدفعُ عنهم. ولا يَعْرِفُ قدرَ هذه الطريقِ إلا من عَرَفَ طرقَ الناسِ وغوائلَها وآفاتَها وقُطَّاعَها. والله المستعان.

[منزلة التبتل]

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨].

والتبتُّلُ: الانقطاعُ، وهو تفعُّل من البَتْلِ وهو القطعُ، وسُمِّيت مريمُ البتولَ لانقطاعِها عن الأزواجِ، وعن أن يكونَ لها نظراءُ مِن نساءِ زمانِها.

قال صاحبُ المنازل: «التبتلُ الانقطاعُ إلى الله بالكليةِ».

فهو أهلٌ أن يُعبدَ وحدَه، ويُدعى وحدَه، ويقصدَ ويشكرَ ويحمدَ، ويحبَّ ويرجى ويخافَ، ويتوكلَ عليه، ويستعانَ به، ويُستجارَ به، ويُلجأَ إليه، ويُصمدَ إليه. فتكون الدعوةُ الإلهيةُ الحقُّ له وحدَه.

ومَن قام بقلبه هذا - معرفةً وذوقًا وحالًا - صحَّ له مقامُ التبتلِ والتجريدِ المحضِ.

[منزلة الرجاء]

قال الله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فابتغاءُ الوسيلة إليه: طلبُ القربِ منه بالعبوديةِ والمحبةِ. فذكَرَ مقاماتِ الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤُه: الحبَّ، والخوفَ، والرجاءَ.

وفي صحيح مسلم[1] عن جابر ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ - قبلَ موتِه بثلاثٍ -: **«لا يموتَنَّ أحدُكم إلا وهو يحسنُ الظنَّ بربِّه»**.

«الرجاءُ»: حادٍ يحدُو القلوبَ إلى بلادِ المحبوبِ، وهو اللهُ والدارُ الآخرة، ويطيِّبُ لها السيرَ. وقيل: هو الاستبشارُ بجودِ وفضلِ الربِّ تبارك وتعالى، والارتياحُ لمطالعةِ كرمِه سبحانه. وقيل: هو الثقةُ بجودِ الربِّ تعالى.

والفرقُ بينَه وبينَ التمني أنَّ التمني يكونُ مع الكسلِ، ولا يسلكُ بصاحبه طريقَ الجدِّ والاجتهادِ، والرجاءُ يكونُ مع بذلِ الجهدِ وحسنِ التوكلِ، فالأولُ كحال مَن يتمنى أن يكونَ له أرضٌ يبذرُها ويأخذُ زرعَها، والثاني كحال مَن يشقُّ أرضَه ويفلحُها ويبذرُها ويرجو طلوعَ الزرعِ؛ ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاءَ لا يصحُّ إلا مع العملِ.

والرجاءُ ثلاثةُ أنواعٍ: نوعانِ محمودانِ، ونوعٌ غَرُورٌ مذمومٌ.

فالأولان: رجاءُ رجلٍ عَمِلَ بطاعةِ الله على نورٍ مِن الله، فهو راجٍ لثوابِه، ورجلٌ أذنبَ ذنوبًا ثم تابَ منها، فهو راجٍ لمغفرةِ الله تعالى وعفوِه وإحسانِه وجودِه وحلمِه وكرمِه.

والثالث: رجلٌ متمادٍ في التفريطِ والخطايا، يرجو رحمةَ الله بلا عملٍ، فهذا هو الغرورُ والتمني والرجاءُ الكاذبُ.

وقال أبو علي الروذباري: الخوفُ والرجاءُ كجناحَيِ الطائرِ إذا استويَا استوَى الطيرُ وتمَّ طيرانُهُ، وإذا نقصَ أحدُهما وقع فيه النقصُ، وإذا ذهبَا صار الطائرُ في حدِّ الموتِ.

---

(١) مسلم (٢٨٧٧).

واختلَفُوا: أيُّ الرجائَينِ أكملُ: رجاءُ المحسنِ ثوابَ إحسانِه، أو رجاءُ المسيءِ التائبِ مغفرةَ ربه وعفوه؟

- **فطائفةٌ** رجحَتْ رجاءَ المحسنِ؛ لقوةِ أسبابِ الرجاءِ معه.

- **وطائفةٌ** رجحَتْ رجاءَ المذنبِ؛ لأن رجاءَه مجرَّدٌ عن علةِ رؤيةِ العمل، مقرونٌ بذلَّةِ رؤيةِ الذنبِ.

[منزلة الرغبة]

قال الله ﷻ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، والفرقُ بينَ الرغبةِ والرجاءِ أن الرجاءَ طمعٌ، والرغبةَ طلبٌ فهي ثمرة الرجاء، فإنه إذا رجا الشيءَ طلَبَهُ، والرغبةُ مِن الرجاءِ كالهربِ مِن الخوفِ، فمَن رجَا شيئًا طلَبَهُ ورَغِبَ فيه، ومَن خاف شيئًا هرَبَ منه.

والمقصود: أن الراجيَ طالبٌ، والخائفَ هاربٌ.

[منزلة الرعاية]

وهي مراعاةُ العلمِ وحفظُه بالعملِ، ومراعاةُ العملِ بالإحسانِ والإخلاصِ وحفظُه مِن المفسدات، ومراعاةُ الحالِ بالموافقة وحفظُه بقطعِ التفريقِ. فالرعايةُ صيانةٌ وحفظٌ.

ومراتبُ العلمِ والعملِ ثلاثةٌ:

- **روايةٌ**: وهي مجردُ النقلِ وحملُ المرويِّ.

- **ودرايةٌ**: وهي فهمُه وتعقلُ معناه.

- **ورعايةٌ**: وهي العملُ بموجِب ما عَلِمَه ومقتضاه.

فالنَّقَلَةُ همَّتُهم الروايةُ، والعلماءُ همَّتُهم الدرايةُ، والعارفون همَّتُهم الرعايةُ.

وقد ذمَّ اللهُ مَن لم يرعَ ما اختارَه وابتدعَه مِن الرهبانية حقَّ رعايتِه، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

فالوقفُ التامُّ عندَ قوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾، ثم يبتدئ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أي لم نشرَعْها لهم، بل هم ابتدعُوها مِن عندِ أنفسِهم، ولم نكتُبْها عليهم ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ أي: لم يفعلُوها ولم يبتدعُوها إلا لطلبِ رضوانِ الله.

والقصدُ: أن الله سبحانه وتعالى ذمَّ مَن لم يرعَ قربةً ابتدعَها لله تعالى حقَّ رعايتِها؛ فكيف بمن لم يرعَ قربةً شرَعَها الله لعباده، وأَذِنَ بها، وحثَّ عليها؟!

[منزلة المراقبة]

قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وفي حديثِ جبريلَ عليه السلام أنه سألَ النبيَّ ﷺ عن الإحسان؟ فقال له: «**أَنْ تَعبدَ اللهَ كأنك تراهُ، فإن لم تكن تراهُ فإنه يَراك**»[1].

المراقبةُ: دوامُ علمِ العبدِ وتيقنِه باطلاعِ الحقِّ سبحانه وتعالى على ظاهرِه وباطنِه. فاستدامتُه لهذا العلمِ واليقينِ هي المراقبةُ، وهي ثمرةُ علمِه بأن الله سبحانه رقيبٌ عليه، ناظرٌ إليه، سامعٌ لقوله، وهو مطلعٌ على عملِه كلَّ وقتٍ وكلَّ لحظةٍ، وكلَّ نَفَسٍ، وكلَّ طرفةِ عين. والغافلُ عن هذا بمعزلٍ عن حالِ أهلِ البدايات، فكيف بحالِ المريدين؟! فكيف بحالِ العارفين؟!

(١) البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٨، ٩، ١٠).

وقيل لبعضِهم: متى يهشُّ الراعي غنمَه بعصاه عن مراتعِ الهلكةِ؟ فقال: إذا عَلِمَ أن عليه رقيبًا.

وقيل: الرجاءُ يحرِّكُ إلى الطاعةِ، والخوفُ يبعدُ عن المعاصي، والمراقبةُ تؤديك إلى طريقِ الحقائقِ.

وأربابُ الطريقِ مجمعون على أن مراقبةَ الله تعالى في الخواطرِ سببٌ لحفظِها في حركاتِ الظواهر، فمَن راقبَ اللهَ في سرِّه حفظَهُ اللهُ في حركاتِه في سرِّه وعلانيتِه.

والمراقبةُ هي التعبدُ باسمِه الرقيبِ، الحفيظِ، العليمِ، السميعِ، البصيرِ، فمَن عقلَ هذه الأسماءَ وتعبَّدَ بمقتضاها – حصلَتْ له المراقبةُ. والله أعلم.

[منزلة تعظيم حرمات الله ﷻ]

قال الله ﷻ: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج: ٣٠]، قال جماعةٌ مِن المفسرين: حرماتُ الله هاهنا: مغاضبُه وما نهى عنه، وتعظيمُها: تركُ ملابستِها. وقال قومٌ: الحرماتُ: هي الأمرُ والنهي. وقال قومٌ: الحرماتُ هاهنا: المناسكُ ومشاعرُ الحج زمانًا ومكانًا.

والصوابُ: أن الحرماتِ تعمُّ هذا كلَّه، وهي جمعُ «حرمة» وهي ما يجبُ احترامُه وحفظُه من الحقوقِ، والأشخاصِ، والأزمنةِ، والأماكنِ، فتعظيمُها: توفيتُها حقَّها، وحفظُها من الإضاعةِ.

[منزلة الإخلاص]

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥].

وقال: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل بن عياض: هو أخلصُه وأصوبُه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصُه وأصوبُه؟ فقال: إن العملَ إذا

كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبلْ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبَلْ، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالصُ: أن يكونَ لله، والصوابُ: أن يكونَ على السنة. ثم قرَأَ قولَه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥]، فإسلامُ الوجه: إخلاصُ القصد والعمل لله، والإحسانُ فيه: متابعةُ رسوله ﷺ وسنته.

وقال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهي الأعمالُ التي كانت على غير السنةِ، أو أُرِيدَ بها غيرُ وجهِ الله.

وسُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن الرجلِ يقاتلُ رياءً، ويقاتل شجاعةً، ويقاتل حميةً: أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**مَن قاتلَ لتكونَ كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيلِ الله**»[1].

وأخبَرَ عن أولِ ثلاثةٍ تسعرُ بهم النارُ: قارئُ القرآنِ، والمجاهدُ، والمتصدِّقُ بمالِه[2]، الذين فعلُوا ذلك ليقالَ: فلانٌ قارئٌ، فلانٌ شجاعٌ، فلانٌ متصدِّقٌ، ولم تكن أعمالُهم خالصةً لله.

وفي الحديثِ الصحيحِ الإلهيِّ يقولُ الله تعالى: «**أنا أغنَى الشركاءِ عن الشركِ، مَن عَمِلَ عملًا أَشْرَكَ فيه غيري فهو للذي أشرَكَ به، وأنا منه بريءٌ**»[3].

وقد تنوعَّتْ عبارتُهم في الإخلاصِ والصدقِ والقصدُ واحدٌ:

فقيل: التوقِّي مِن ملاحظةِ الخلقِ حتى عن نفسِك، والصدقُ: التنقِّي مِن مطالعةِ النفسِ، فالمخلِصُ لا رياءَ له، والصادقُ لا إعجابَ له، ولا يتمُّ الإخلاصُ إلا بالصدقِ، ولا الصدقُ إلا بالإخلاصِ، ولا يتمَّانِ إلا بالصبرِ.

---

(١) البخاري (١٢٣، ٢٨١٠، وآخر)، ومسلم (١٩٠٤).
(٢) مسلم (١٩٠٥).
(٣) مسلم (٢٩٨٥).

وقيل: الإخلاصُ: استواءُ أعمالِ العبد في الظاهرِ والباطنِ، والرياءُ: أن يكونَ ظاهرُه خيرًا من باطنِه، والصدقُ في الإخلاص: أن يكونَ باطنُه أعمرَ من ظاهرِه.

وقيل: الإخلاصُ: نسيانُ رؤيةِ الخلقِ بدوامِ النظرِ إلى الخالقِ، ومن تزيَّنَ للناس بما ليس فيه سقطَ مِن عينِ الله.

ومن كلامِ الفضيل: تركُ العملِ مِن أجلِ الناسِ رياءٌ، والعملُ مِن أجلِ الناسِ شركٌ، والإخلاصُ أن يعافيَك اللهُ منهما.

[منزلة الاستقامة]

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقال لرسولِه ﷺ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، فبيَّنَ أن الاستقامةَ ضدُّ الطغيانِ، وهو مجاوزةُ الحدودِ في كلِّ شيء.

سُئِلَ صدِّيقُ الأمة وأعظمُها استقامةً - أبو بكر الصديق رضي الله عنه - عن الاستقامةِ؟ فقال: ألَّا تشركَ بالله شيئًا. يريدُ: الاستقامةَ على محضِ التوحيدِ.

وقال عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه: الاستقامةُ: أن تستقيمَ على الأمرِ والنهي، ولا تروغُ روغانَ الثعالبِ.

وسمعتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: استقامُوا على محبتِه وعبوديتِه، فلم يلتفتُوا عنه يمنةً ولا يسرةً.

وفي صحيح مسلم(١) عن سفيانَ بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت: «يا رسولَ الله، قُلْ لي في الإسلامِ قولًا لا أسألُ عنه أحدًا غيرَك. قال: قُلْ: آمنتُ بالله، ثم استقِمْ».

---

(١) مسلم (٣٨).

والمطلوبُ مِن العبدِ الاستقامةُ، وهي السدادُ، فإن لم يقدِرْ عليها فالمقاربةُ، فإن نزَلَ عنها فالتفريطُ والإضاعةُ، كما في صحيح مسلم[١] من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**سدِّدُوا وقارِبُوا، واعلمُوا أنه لن ينجوَ أحدٌ منكم بعملِه. قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمَّدَني اللهُ برحمةٍ منه وفضلٍ**» .

فجمَعَ في هذا الحديث مقاماتِ الدين كلَّها، فأمَرَ بالاستقامةِ - وهي السدادُ - والإصابةَ في النياتِ والأقوالِ والأعمالِ.

فالاستقامةُ كلمةٌ جامعة، آخذةٌ بمجامعِ الدين، وهي القيامُ بين يدي الله على حقيقةِ الصدقِ، والوفاءِ بالعهدِ.

والاستقامةُ تتعلَّقُ بالأقوالِ، والأفعالِ، والأحوالِ، والنياتِ، فالاستقامةُ فيها: وقوعُها لله، وبالله، وعلى أمرِ الله.

قال بعضُ العارفين: كن صاحبَ الاستقامةِ، لا طالبَ الكرامة؛ فإن نفسَك متحركةٌ في طلبِ الكرامة، وربك يُطالِبُك الاستقامةَ.

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله تعالى روحه - يقول: أعظمُ الكرامةِ لزومُ الاستقامةِ.

[منزلة التوكل]

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] ، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

---

(١) البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

وفي الصحيحين[1] في حديثِ السبعين ألفًا الذين يدخلُون الجنةَ بغير حسابٍ: «**هم الذين لا يَسْتَرقُونَ، ولا يَتَطيَّرونَ، ولا يَكْتَوُونَ، وعلى ربهم يتوكَّلُونَ**».

وفي صحيح البخاري[2] عن ابن عباس ﷺ قال: «حسبُنا الله ونعمَ الوكيل» قالها إبراهيمُ ﷺ حين أُلقي في النارِ، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وفي الترمذي[3] عن عمر ﷺ مرفوعًا: «**لو أنكم تتوكَّلُون على الله حقَّ توكلِه لرزقَكم كما يرزقُ الطيرَ، تغدُو خِماصًا وتروحُ بِطانًا**».

التوكلُ نصفُ الدين، والنصفُ الثاني الإنابةُ، فإن الدينَ استعانةٌ وعبادةٌ، فالتوكلُ هو الاستعانةُ، والإنابةُ هي العبادةُ.

ومنزلتُه أوسعُ المنازل وأجمعُها، ولا تزالُ معمورةً بالنازلين؛ لسعةِ متعلقِ التوكلِ، وكثرةِ حوائجِ العالمين، وعمومِ التوكلِ، ووقوعِه مِن المؤمنين والكفارِ، والأبرارِ والفجارِ، والطيرِ والوحشِ والبهائمِ.

قال الإمام أحمد: التوكلُ عملُ القلبِ. ومعنى ذلك أنه عملٌ قلبيٌّ، ليس بقول اللسانِ، ولا عمل الجوارحِ، ولا هو مِن بابِ العلومِ والإدراكاتِ.

ومِن الناسِ مَن يجعلُه مِن بابِ المعارفِ والعلومِ، ومنهم مُن يُفسرُه بالسكونِ وخمودِ حركةِ القلب، ومنهم مَن يُفسرُه بالرضا، ومنهم مُن يُفسرُه بالثقةِ بالله، والطمأنينةِ إليه والسكونِ إليه.

(١) البخاري (٥٧٠٥، ٦٤٧٢، ٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠).
(٢) البخاري (٤٥٦٣).
(٣) الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤).

وحقيقةُ الأمر: أن التوكلَ حالٌ مركبةٌ مِن مجموعِ أمورٍ، لا تتمُّ حقيقةُ التوكل إلا بها. وكلٌّ أشارَ إلى واحدٍ من هذه الأمور، أو اثنين أو أكثر:

- **فأول ذلك**: معرفةٌ بالرب وصفاتِه: مِن قدرتِه، وكفايته، وقيوميته، وانتهاءِ الأمورِ إلى عِلْمِه، وصدورِها عن مشيئتِه وقدرتِه.

- **الدرجة الثانية**: إثباتٌ في الأسبابِ والمسبباتِ؛ فإن مَن نفاها فتوكلُه مدخولٌ، وهذا عكسُ ما يَظهرُ في بدواتِ الرأي: أن إثباتَ الأسبابِ يقدحُ في التوكل، وأن نفيَها تمامُ التوكل.

- **الدرجة الثالثة**: رسوخُ القلبِ في مقامِ توحيدِ التوكلِ؛ فإنه لا يستقيمُ توكلُ العبدِ حتى يصحَّ له توحيدُه، بل حقيقةُ التوكل توحيدُ القلب، فما دامَتْ فيه علائقُ الشركِ فتوكلُه معلولٌ مدخولٌ، وعلى قدرِ تجريدِ التوحيدِ تكون صحةُ التوكل.

- **الدرجة الرابعة**: اعتمادُ القلبِ على الله، واستنادُه إليه، وسكونُه إليه، بحيث لا يَبْقَى فيه اضطرابٌ من تشويشِ الأسبابِ، ولا سكونٌ إليها، بل يخلعُ السكونَ إليها مِن قلبِه، ويلبسُه السكون إلى مسببِها، وعلامةُ هذا أنه لا يبالي بإقبالِها وإدبارِها، ولا يضطربُ قلبُه ويخفقُ عند إدبارِ ما يحبُّ منها، وإقبالِ ما يكرُه؛ لأن اعتمادَه على الله، وسكونَه إليه، واستنادَه إليه.

- **الدرجة الخامسة**: حسنُ الظنِّ بالله ﷻ، فعلى قدرِ حسنِ ظنِّك بربِّك ورجائِك له يكونُ توكلُك عليه؛ ولذلك فسَّر بعضُهم التوكلَ بحسنِ الظنِّ بالله.

- **الدرجة السادسة**: استسلامُ القلبِ له، وانجذابُ دواعيه كلِّها إليه، وقطعُ منازعاتِه.

- **الدرجة السابعة**: التفويضُ، وهو روحُ التوكلِ ولبُّه وحقيقتُه، وهو إلقاءُ أمورِه كلِّها إلى الله، وإنزالُها به طلبًا واختيارًا، لا كرهًا واضطرارًا، بل كتفويضِ الابنِ العاجزِ الضعيفِ المغلوبِ على أمرِه كلَّ أمورِه إلى أبيه، العالمِ بشفقته عليه ورحمتِه، وتمامِ كفايته، وحسنِ ولايتِه له، وتدبيرِه له.

- **[الدرجة الثامنة]**: فإذا وضعَ قدمَه في هذه الدرجةِ انتقَلَ منها إلى درجةِ الرضا، وهي ثمرةُ التوكل، فإنه إذا توكلَ حقَّ التوكلِ رَضِيَ بما يفعلُه وكيلُه.

فباستكمالِ هذه الدرجاتِ الثمانِ يستكملُ العبدُ مقامَ التوكل، وتثبتْ قدمُه فيه، وهذا معنى قول بشر الحافي: يقول أحدُهم: توكلتُ على الله. يكذبُ على الله؛ لو توكَّل على الله لرضي بما يفعلُه الله به.

فصل [اشتباه محمود هذا الباب بمذمومه]

وكثيرًا ما يشتبُه في هذا البابِ المحمودُ الكاملُ بالمذمومِ الناقصِ:

- فيشتبهُ التفويضِ بالإضاعةِ، فيضيعُ العبدُ حظَّه ظنًّا منه أن ذلك تفويضٌ وتوكلٌ، وإنما هو تضييعٌ لا تفويضٌ.

- ومنه: اشتباهُ التوكلِ بالراحة، وإلقاءُ حملِ الكلِّ، فيظن صاحبُه أنه متوكلٌ، وإنما هو عاملٌ على عدم الراحة.

- ومنه: اشتباهُ خلعِ الأسباب بتعطيلِها، فخلعُها توحيدٌ، وتعطيلُها إلحادٌ وزندقةٌ، فخلعُها عدمُ اعتمادِ القلب عليها ووثوقِه وركونِه إليها مع قيامه بها، وتعطيلُها إلغاؤُها عن الجوارح.

- ومنه: اشتباهُ الثقة بالله بالغرورِ والعجزِ، والفرقُ بينهما: أن الواثقَ بالله قد فعلَ ما أمرَه الله به ووثقَ بالله في طلوعِ ثمرتِه، وتنميتِها وتزكيتِها، كغارسِ الشجرة،

وباذرِ الأرض. والمغترُّ العاجزُ قد فرطَ فيما أُمِرَ به وزعمَ أنه واثقٌ بالله، والثقةُ إنما تصحُّ بعدَ بذلِ المجهود.

- ومنه: اشتباهُ الطمأنينةِ إلى الله والسكونُ إليه بالطمأنينةِ إلى المعلومِ وسكونِ القلبِ إليه، ولا يميزُ بينهما إلا صاحبُ البصيرة، كما يُذكرُ عن أبي سليمان الداراني: أنه رأى رجلًا بمكةَ لا يتناول شيئًا إلا شربةً مِن ماء زمزم، فمضى عليه أيامٌ، فقال له أبو سليمان يومًا: أرأيت لو غارَتْ زمزمُ، أي شيء كنتَ تشربُ؟ فقام وقبَّلَ رأسَه، وقال: جزاك الله خيرًا، حيث أرشدتَنِي؛ فإني كنتُ أعبدَ زمزمَ منذ أيام. ثم تركه ومضى.

- ومنه: اشتباهُ علمِ التوكلِ بحالِ التوكلِ، فكثيرٌ مِن الناس يعرفُ التوكلَ وحقيقتَه وتفاصيلَه، فيظنُّ أنه متوكلٌ، وليس مِن أهلِ التوكل، فحالُ التوكل أمرٌ آخرُ مِن وراءِ العلمِ به.

فهذا البابُ يكثر اشتباهُ الدعاوى فيه بالحقائقِ، والعوارضُ بالمطالب، والآفاتُ القاطعة بالأسبابِ الموصلة. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فصل [تعلق التوكل بالأسماء الحسنى]

التوكُّلُ من أعمِّ المقامات تعلقًا بالأسماء الحُسْنَى؛ فإن له تعلقًا خاصًّا بعامةِ أسماءِ الأفعال، وأسماءِ الصفات.

فله تعلقٌ باسم الغفارِ، والتواب، والعفو، والرءوف، والرحيم، وتعلقٌ باسمِ الفتاحِ، والوهاب، والرزاق، والمعطي، والمحسن، وتعلقٌ باسمِ المعزِّ المذل، الخافض الرافع، المانع، مِن جهةِ توكلِه عليه في إذلالِ أعداءِ دينه، وخفضِهم ومنعِهم أسبابَ النصر، وتعلقٌ بأسماءِ القدرةِ، والإرادة، وله تعلقٌ عامٌّ بجميع الأسماء الحُسْنى.

ولهذا فسَّره مَن فسَّره مِن الأئمة بأنه المعرفةُ بالله، وإنما أرادَ أنه بحسبِ معرفةِ العبدِ يصحُّ له مقامُ التوكلِ، وكلما كان بالله أعرفَ كان توكلُه عليه أقوى.

[منزلة التسليم]

وهي نوعانِ: تسليمٌ لحكمِه الديني الأمري، وتسليمٌ لحكمِه الكوني القدري.

فأما الأول: فهو تسليمُ المؤمنين العارفين. قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

فهذه ثلاثُ مراتب: التحكيمُ، وسعةُ الصدر بانتفاء الحرج، والتسليمُ.

وأمَّا التسليمُ للحكم الكوني: فمزلَّةُ أقدامٍ، ومضلَّةُ أفهامٍ، حيَّرَ الأنامَ، وأوقعَ الخصامَ، وهي مسألةُ الرضا بالقضاءِ، وقد تقدمَ الكلامُ عليها بما فيه كفايةٌ، وبيَّنَّا أن التسليمَ للقضاء يُحمدُ إذا لم يُؤمَرْ العبدُ بمنازعتِه ودفعِه ولم يقدِرْ على ذلك، كالمصائبِ التي لا قدرةَ له على دفعِها، وأمَّا الأحكامُ التي أُمِرَ بدفعِها فلا يجوزُ له التسليمُ إليها، بل العبوديةُ مدافعتُها بأحكامٍ أُخَرَ أحبَّ إلى الله منها.

التسليمُ: هو الخلاصُ من شبهةٍ تُعارضُ الخبرَ، أو شهوةٍ تُعارضُ الأمرَ، أو إرادةٍ تُعارضُ الإخلاصَ، أو اعتراضٍ يُعارضُ القدرَ والشرع.

وصاحبُ هذا التخلص: هو صاحبُ القلبِ السليم الذي لا ينجو يومَ القيامة إلا مَن أتى الله به، فإن التسليمَ ضد المنازعة.

والمنازعة:

- إمَّا بشبهةٍ فاسدة تُعارضُ الإيمانَ بالخبر عمَّا وصفَ الله به نفسَه مِن صفاتِه وأفعالِه، وما أخبَرَ به عن اليومِ الآخر، وغيرِ ذلك، فالتسليمُ له: تركُ منازعتِه بشبهات المتكلمين الباطلةِ.

- وإمَّا بشهوةٍ تُعارضُ أمرَ الله ﷻ، فالتسليمُ للأمر بالتخلص منها.
- أو إرادةٍ تُعارضُ مرادَ الله من عبدِه، فتُعارضُه إرادةٌ تتعلقُ بمراد العبدِ من الرب، فالتسليمُ بالتخلص منها.
- أو اعتراضٍ يُعارضُ حكمتَه في خلقِه وأمره، بأن يظنَّ أن مقتضَى الحكمةِ خلافُ ما شرع، وخلافُ ما قضى وقدَّر، فالتسليمُ التخلصُ من هذه المنازعاتِ كلها.

وبهذا يتبيَّنُ أنه مِن أجلِّ مقاماتِ الإيمانِ، وأعلى طرق الخاصةِ، وأن التسليمَ هو محضُ الصديقيَّةِ، التي هي بعْدَ درجةِ النبوةِ، وأن أكملَ الناسِ تسليمًا أكملُهم صديقيَّةً.

[منزلة الصبر]

وهو واجبٌ بإجماعِ الأمَّة، وهو نصفُ الإيمانِ، فإن الإيمانَ نصفان: نصفٌ صبر، ونصفٌ شكر.

وهو مذكورٌ في القرآنِ على ستةَ عشرَ نوعًا: الأمرُ به، النهيُ عن ضده، الثناءُ على أهله، إيجابُه سبحانه محبتَه لهم، إيجابُ معيتِه لهم، إخبارُه بأن الصبرَ خيرٌ لأصحابه، إيجابُ الجزاءِ لهم بأحسنِ أعمالِهم، إيجابُه سبحانه الجزاءَ لهم بغيرِ حساب، إطلاقُ البشرى لأهل الصبرِ، ضمانُ النصرِ والمددِ لهم، الإخبارُ منه تعالى بأن أهلَ الصبر هم أهلُ العزائم، الإخبارُ أنه ما يلقى الأعمالَ الصالحةَ وجزاءَها والحظوظَ العظيمةَ إلا أهلُ الصبر، الإخبارُ أنه إنما ينتفعُ بالآيات والعبر أهلُ الصبر، الإخبارُ بأن الفوزَ المطلوب المحبوب إنما نالوه بالصبر، أنه يُورِثُ صاحبَه درجةَ الإمامة، اقترانُه بمقاماتِ الإسلام والإيمان.

ولهذا كان الصبرُ من الإيمان بمنزلةِ الرأس من الجسد، ولا إيمانَ لمن لا صبرَ له، كما أنه لا جسدَ لمن لا رأسَ له.

وأخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح أنه ضياءٌ[1]، وقال: «**مَن يتصبَّرْ يصبِّرْه اللهُ**»[2]، وأمرَ ﷺ المُصابَ بأنفعِ الأمور له، وهو الصبرُ والاحتسابُ؛ فإن ذلك يخففُ مصيبتَه، ويوفرُ أجرَه، والجزعُ والتسخط والتشكي يزيدُ في المصيبةِ، ويُذهِبُ الأجرَ، وأخبرَ ﷺ أن الصبرَ خيرٌ كله، فقال: «**ما أُعطِيَ أحدٌ عطاءً خيرًا له وأوسعَ مِن الصبرِ**»[3].

فصل [تعريف الصبر وأنواعه]

والصبرُ في اللغة: الحبسُ والكفُّ، ومنه: قُتل فلانٌ صبرًا، إذا أُمسكَ وحُبسَ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨] أي: احبِسْ نفسَك معهم.

فالصبر: حبسُ النفسِ عن الجزعِ والتسخط، وحبسُ اللسانِ عن الشكوى، وحبسُ الجوارحِ عن التشويشِ.

وهو ثلاثةُ أنواعٍ: صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن معصية الله، وصبرٌ على امتحان الله:

- **فالأولان**: صبرٌ على ما يتعلقُ بالكسب.
- **والثالث**: صبرٌ على ما لا كسبَ للعبد فيه.

---

(١) مسلم (٢٢٣).

(٢) البخاري (١٤٦٩، ٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣).

(٣) البخاري (١٦٨٦، ١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: كان صبرُ يوسفَ عن مطاوعةِ امرأةِ العزيزِ على شأنها أكملَ من صبرِه على إلقاء إخوتِه له في الجُبِّ وبيعِه وتفريقِهم بينه وبين أبيه؛ فإن هذه أمورٌ جرَتْ عليه بغير اختيارِه، لا كسبَ له فيها، ليس للعبد فيها حيلةٌ غير الصبرِ، وأمَّا صبرُه عن المعصيةِ فصبرُ اختيارٍ ورضا ومحاربةٌ للنفس، ولاسيما مع الأسبابِ التي تقوى معها دواعي الموافقةِ.

وكان يقول: الصبرُ على أداءِ الطاعاتِ أكملُ من الصبرِ على اجتنابِ المحرماتِ وأفضلُ؛ فإن مصلحةَ فعلِ الطاعة أحبُّ إلى الشارعِ من مصلحةِ تركِ المعصية، ومفسدةَ عدمِ الطاعة أبغضُ إليه وأكرُه من مفسدةِ وجود المعصية.

فصل [الصبر بالله ولله ومع الله]

وهو على ثلاثةِ أنواعٍ: صبرٌ بالله، وصبرٌ لله، وصبرٌ مع الله.

فالأول: صبرُ الاستعانةِ به: ورؤيتُه أنه هو المصبِّرُ، وأن صبرَ العبد بربه لا بنفسه، كما قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧] يعني: إن لم يصبِّرْك هو لم تَصْبِرْ.

والثاني: الصبرُ لله: وهو أن يكونَ الباعثُ له على الصبرِ محبةَ الله، وإرادةَ وجهه، والتقربَ إليه، لا لإظهارِ قوةِ النفسِ، والاستحمادِ إلى الخلق، وغيرِ ذلك من الأعراضِ.

والثالث: الصبرُ مع الله: وهو دورانُ العبدِ مع مرادِ الله الديني منه، ومع أحكامِه الدينيةِ، صابرًا نفسَه معها، سائرًا بسيرِها، مقيمًا بإقامتها، يتوجَّهُ معها أين توجهَتْ ركائبُها، وينزلُ معها أين استقَلَّتْ مضاربُها.

فهذا معنى كونِه صابرًا مع الله، أي: قد جعلَ نفسَه وقفًا على أوامرِه ومحابِّه، وهو أشدُّ أنواعِ الصبر وأصعبُها، وهو صبرُ الصديقين.

قال الجنيد: المسيرُ من الدنيا إلى الآخرة سهلٌ هينٌ على المؤمن، وهجرانُ الخلق في جنب الله شديدٌ، والمسيرُ من النفس إلى الله صعبٌ شديد، والصبرُ مع الله أشدُّ.

وقيل: مراتبُ الصابرين خمسةٌ: صابرٌ، ومصطبرٌ، ومتصبرٌ، وصبورٌ، وصبارٌ.

- **فالصابرُ**: أعمُّها.
- **والمصطبرُ**: المكتسبُ الصبرَ المليءُ به.
- **والمتصبِّرُ**: المتكلفُ حامل نفسه عليه.
- **والصبورُ**: العظيمُ الصبرِ الذي صبرُه أشدُّ مِن صبرِ غيرِه، فهذا في الوصفِ والكيفِ.
- **والصبارُ**: الكثيرُ الصبرِ، فهذا في القدرِ والكمِّ.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]: إنه انتقالٌ من الأدنى إلى الأعلى؛ فالصبرُ دون المصابرةِ، والمصابرةُ دون المرابطةِ، فالصبرُ مع نفسك، والمصابرةُ بينك وبين عدوك، والمرابطةُ الثباتُ وإعدادُ العدة، وكما أن الرباطَ لزومُ الثغر لئلَّا يهجمَ منه العدوُّ فكذلك الرباطُ أيضًا لزومُ ثغرِ القلب لئلَّا يهجمَ عليه الشيطانُ، فيملكَه أو يخربَه أو يشعِّثَه.

وفي كتاب الأدب للبخاري: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن الإيمان؟ فقال: «**الصبرُ والسماحةُ**»[1]. وهذا من أجمعِ الكلامِ وأعظمِه برهانًا، وأوعبِه لمقاماتِ الإيمان من أولها إلى آخرها؛ فإن النفسَ يُراد منها شيئان: بذلُ ما أُمرَتْ به وإعطاؤُه، فالحامل عليه: السماحةُ. وتركُ ما نُهيَتْ عنه والبعدُ منه، فالحاملُ عليه: الصبرُ.

---

(١) أحمد (٣٢/ ١٧٧).

والشكوى إلى الله ﷻ لا تُنافي الصبرَ؛ فإن يعقوبَ عليه السلام وَعَدَ بالصبر الجميل، والنبيُّ إذا وَعَدَ لا يخلفُ، ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وكذلك أيوبُ أخبرَ اللهُ عنه أنه وجدَه صابرًا مع قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] .

وإنما يُنافي الصبرَ شكوى الله، لا الشكوى إلى الله، كما رأى بعضُهم رجلًا يشكو إلى آخرَ فاقةً وضرورةً، فقال: يا هذا، تشكو مَن يرحمُك إلى مَن لا يرحمُك؟! ثم أنشد:

وإذا عَرَتْكَ بليَّةٌ فاصبِرْ لها ** صبرَ الكريمِ فإنه بك أعلمُ
وإذا شكوتَ إلى ابنِ آدمَ إنما ** تَشكو الرحيمَ إلى الذي لا يَرحمُ

[منزلة الرضا]

وقد أجمع العلماءُ على أنه مستحبٌّ مؤكدٌ استحبابُه، واختلفوا في وجوبِه على قولين.

وقال النبي ﷺ: **«ذاقَ طعمَ الإيمان مَن رضي بالله ربًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمحمدٍ رسولًا»**[1]، وقال: **«مَن قال حين يسمعُ النداءَ: رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمحمدٍ رسولًا، غفرتُ له ذنوبَه»**[2].

وهذان الحديثانِ عليهما مدارُ مقاماتِ الدينِ، وإليهما ينتهي، وقد تضمَّنَا الرضا بربوبيتِه سبحانه، وألوهيتِه، والرضا برسولِه والانقيادَ له، والرضا بدينِه والتسليمَ له، ومن اجتمعَتْ له هذه الأربعةُ فهو الصديقُ حقًّا، وهي سهلةٌ بالدعوى واللسانِ، وهي من أصعبِ الأمور عند الحقيقةِ والامتحانِ، ولاسيما إذا جاء ما يخالفُ هوى النفسِ ومرادَها.

---

(١) مسلم (٣٤).
(٢) مسلم (٣٨٦).

- **فالرضا بإلهيته**: يتضمَّنُ الرضا بمحبتِه وحدَه، وخوفَه، ورجاءَه، والإنابةَ إليه، والتبتلَ إليه، وانجذابَ قوى الإرادة والحب كلِّها إليه، فِعْلَ الراضي بمحبوبه كلَّ الرضا، وذلك يتضمّنُ عبادتَه والإخلاصَ له.

- **والرضا بربوبيتِه**: يتضمَّنُ الرضا بتدبيرِه لعبده، ويتضمَّنُ إفرادَه بالتوكل عليه، والاستعانةِ به، والثقةِ به، والاعتمادِ عليه، وأن يكونَ راضيًا بكل ما يَفْعَلُ به.

فالأولُ: يتضمَّنُ رضاه بما يُؤمَرُ به. والثاني: يتضمَّنُ رضاه بما يقدرُ عليه.

- **وأمَّا الرضا بنبيِّه رسولًا**: فيتضمَّنُ كمالَ الانقياد له، والتسليمَ المطلق إليه، بحيث يكونُ أولى به من نفسِه، فلا يتلقَّى الهدى إلا مِن مواقعِ كلماتِه، ولا يحاكمُ إلا إليه، ولا يحكمُ عليه غيرُه، ولا يرضَى بحكم غيره ألبتةَ.

- **وأمَّا الرضا بدينِه**: فإذا قال، أو حكَمَ، أو أمَرَ، أو نهَى رَضِيَ كلَّ الرضا، ولم يبقَ في قلبه حرجٌ من حكمِه، وسلَّم له تسليمًا ولو كان مخالفًا لمراد نفسِه أو هواها، أو قولِ مقلدِه وشيخِه وطائفتِه.

[فصل الرضا منه كسبي ومنه موهبي]

والتحقيقُ في المسألة: أن الرضا كسبيٌّ باعتبار سببِه، موهبيٌّ باعتبارِ حقيقتِه، فيمكنُ أن يقالَ بالكسبِ لأسبابِه، فإذا تمكنَ في أسبابه وغرس شجرتَه اجتنَى منها ثمرةَ الرضا، فإن الرضا آخرُ التوكل، فمن رسخَ قدمُه في التوكلِ والتسليمِ والتفويضِ حصلَ له الرضا ولابدَّ.

فمن رَضِيَ عن ربه رضي الله عنه، بل رضا العبدِ عن الله مِن نتائج رضا الله عنه، فهو محفوفٌ بنوعين من رضاه عن عبدِه: رضا قبلَه أوجَبَ له أن يرضَى عنه، ورضا بعدَه هو ثمرةُ رضاه عنه؛ ولذلك كان الرضا بابَ الله الأعظم، وجنةَ الدنيا، ومستراحَ العارفين، وحياةَ المحبين، ونعيمَ العابدين، وقرةَ عيون المشتاقين.

ومن أعظمِ أسبابِ حصولِ الرضا: أن يلزمَ ما جعلَ اللهُ رضاه فيه، فإنه يوصلُه إلى مقام الرضا ولابدَّ.

قيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغُ العبدُ إلى مقام الرضا؟ فقال: إذا أقام نفسَه على أربعةِ أصول فيما يعاملُ به ربَّه: فيقول: إن أعطيتَنِي قبلتُ، وإن منعتَنِي رضيتُ، وإن تركتَنِي عبدتُ، وإن دعوتَنِي أجبتُ.

فصل [الرضا بالمكروه]

وليس من شرطِ الرضا ألَّا يحسَّ بالألمِ والمكارهِ، بل ألَّا يعترضَ على الحكم ولا يتسخطَه؛ ولهذا أشكلَ على بعضِ الناس الرضا بالمكروه وطعنُوا فيه، وقالوا: هذا ممتنعٌ على الطبيعة، وإنما هو الصبرُ، وإلَّا فكيف يجتمعُ الرضا والكراهةُ وهما ضدانِ؟!

والصواب: أنه لا تناقض بينهما، وأن وجودَ التألم وكراهةَ النفس له لا يُنافِي الرضا، كرضا المريضِ بشربِ الدواءِ الكريهِ، ورضا الصائمِ في اليومِ الشديدِ الحرِّ بما ينالُه مِن ألمِ الجوعِ والظمأِ، ورضا المجاهدِ بما يحصلُ له في سبيلِ الله من ألمِ الجراح وغيرِها.

[طريق الرضا]

وطريقُ الرضا طريقٌ مختصرةٌ، قريبةٌ جدًّا، موصلةٌ إلى أجلِّ غاية، ولكن فيها مشقةٌ، ومع هذا فليست مشقتُها بأصعبَ من مشقةِ طريقِ المجاهدة، ولا فيها من العقباتِ والمفاوز ما فيها، وإنما عقبتُها همةٌ عالية، ونفسٌ زكية، وتوطينُ النفسِ على كل ما يَرِدُ عليها من الله.

ويسهِّلُ ذلك على العبد: علمُه بضعفِه وعجزِه، ورحمتِه به، وشفقتِه عليه، وبره به، فإذا شَهِدَ هذا وهذا ولم يطرحْ نفسَه بين يديه، ويرضَى به وعنه، وتنجذِب دواعي حبه ورضاه كلها إليه - فنفسُه نفسٌ مطرودةٌ عن الله، بعيدةٌ عنه، ليست مؤهلةً لقربه وموالاته، أو نفسٌ ممتحنةٌ مبتلاة بأصنافِ البلايا والمحنِ.

فطريقُ الرضا والمحبة: تُسيِّرُ العبدَ وهو مستلقٍ على فراشِه، فيصبحُ أمامَ الركبِ بمراحلَ.

وثمرةُ الرضا: الفرحُ والسرورُ بالرب تبارك وتعالى.

والرضا ثلاثةُ أقسامٍ: رضا العوامِّ بما قسمَهُ اللهُ وأعطاه، ورضا الخواصِّ بما قدَّره وقضاه، ورضا خواصِّ الخواصِّ به بدلًا من كلِّ ما سواه.

[منزلة الشكر]

وهي مِن أعلى المنازلِ، وهي فوقَ منزلةِ الرضا وزيادة، فالرضا مندرجٌ في الشكرِ؛ إذ يستحيلُ وجودُ الشكر بدونه.

وهو نصفُ الإيمان - كما تقدَّم - والإيمانُ نصفان: نصفُ شكر، ونصفُ صبر.

وقد أمَرَ الله به، ونهى عن ضدِّه، وأثنَى على أهلِه، ووصفَ به خواصَّ خلقِه، وجعلَه غايةَ خلقِه وأمرِه، ووعَدَ أهلَه بأحسنِ جزائِه، وجعلَه سببًا للمزيدِ من فضلِه، وحارسًا وحافظًا لنعمتِه، وأخبرَ أن أهلَه هم المنتفعون بآياتِه، واشتقَّ لهم اسمًا من أسمائِه، فإنه سبحانه هو الشكورُ وهو يوصلُ الشاكرَ إلى مشكورِه بل يُعيدُ الشكرَ مشكورا، وهو غايةُ الرب من عبدِه، وأهلُه هم القليلُ من عباده، قال الله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤] وقال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وسمَّى نفسَه شاكرًا وشكورًا وسمَّى الشاكرين بهذين الاسمَينِ، فأعطاهم من وصفِه وسمَّاهم باسمه، وحسبُك بهذا محبةً للشاكرين وفضلًا!

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: أنه قام حتى تورَّمت قدماه، فقيل له: تفعلُ هذا وقد غَفَرَ الله لك ما تقدَّمَ من ذنبِك وما تأخَّر؟ فقال: «**أفلا أكونُ عبدًا شكورًا**»(١)؟!

وقال لمعاذ: «**والله يا معاذُ، إني لأحبُّك، فلا تنسَ أن تقولَ في دبرِ كل صلاةٍ: اللهم أعنِّي على ذكرِك، وشكرِك، وحسنِ عبادتِك**»(٢).

فصل [الشكر وقواعده]

وأصلُ الشكرِ في وضعِ اللسانِ: ظهورُ أثرِ الغذاء في أبدانِ الحيوان ظهورًا بينًا، ودابةٌ شَكُور: إذا ظهَرَ عليها من السمنِ فوقَ ما تأكل وتُعطَى من العلف.

وكذلك حقيقتُه في العبودية، وهو ظهورُ أثرِ نعمة الله على لسانِ عبده ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبةً، وعلى جوارحه: انقيادًا وطاعةً.

والشكرُ مبنيٌّ على خمسِ قواعدَ: خضوعُ الشاكرِ للمشكورِ، وحبُّه له، واعترافُه بنعمتِه، وثناؤُه عليه بها، وألَّا يستعملَها فيما يكرهُ.

فهذه الخمسُ هي أساسُ الشكرِ، وبناؤُه عليها، فمتى عُدمَ منها واحدةٌ اختلَّ مِن قواعد الشكرِ قاعدةٌ. وكل من تكلَّم في الشكر وحدِّه فكلامُه إليها يرجعُ، وعليها يدورُ.

---

(١) البخاري (١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١)، ومسلم (٢٨١٩).

(٢) أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وأحمد (٣٦/ ٤٢٩، ٤٤٣).

فصل [الفرق بين الحمد والشكر]

وتكلَّمَ الناسُ في الفرقِ بين الحمد والشكر أيهما أعلى وأفضلُ؟

والفرقُ بينهما: أن الشكرَ أعمُّ من جهة أنواعِه وأسبابِه، وأخصُّ من جهة متعلقاتِه، والحمدَ أعمُّ من جهة المتعلقات، وأخصُّ من جهة الأسباب.

ومعنى هذا: أن الشكرَ يكون بالقلبِ خضوعًا واستكانةً، وباللسانِ ثناءً واعترافًا، وبالجوارحِ طاعةً وانقيادًا. ومتعلقُه: النعمُ، دون الأوصافِ الذاتية، فلا يقال: شكَرْنا الله على حياتِه وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمودُ عليها، كما هو محمودٌ على إحسانِه وعدله، والشكرُ يكونُ على الإحسانِ والنعم.

فكلُّ ما يتعلقُ به الشكرُ يتعلقُ به الحمدُ من غير عكس، وكل ما يقعُ به الحمدُ يقعُ به الشكرُ من غير عكس، فإن الشكرَ يقعُ بالجوارح، والحمدُ يقعَ بالقلب واللسان.

[منزلة الحياء]

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وفي الصحيح(١) عن عمران بن حصين رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحياءُ لا يأتي إلا بخيرٍ**»، وفيهما(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**الإيمانُ بضعٌ وسبعون شعبةً - أو بضع وستون شعبة - فأفضلُها قولُ لا إلهَ إلا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان**».

---

(١) البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

(٢) البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

وفي الترمذي مرفوعًا[1]: «**استَحْيُوا مِن الله حقَّ الحياءِ. قالوا: إنا نستحِي يا رسولَ الله. قال: ليس ذلكم، ولكن مَن استحيَا من الله حقَّ الحياءِ فليحفَظِ الرأسَ وما وَعَى، وليحفَظِ البطنَ وما حوى، وليذكُرِ الموتَ والبِلَى، ومَن أرادَ الآخرةَ تركَ زينةَ الدنيا، فمَن فعلَ ذلك فقد استحيا مِن الله حقَّ الحياءِ**».

فصل [تعريف الحياء]

والحياءُ: مِن الحياةِ، ومنه الحيا للمطرِ، لكنه مقصورٌ، وعلى حسبِ حياةِ القلب يكون فيه قوةُ خلقِ الحياء، وقلةُ الحياء مِن موتِ القلبِ والروح، فكلما كان القلبُ أحيى كان الحياءُ أتمَّ.

وأمَّا حياءُ الرب تعالى من عبده: فذاك نوعٌ آخرُ لا تدركُه الأفهامُ، ولا تكيِّفُه العقولُ، فإنه حياءُ كرمٍ وبرٍّ وجود وجلال، فإنه تبارك وتعالى حييٌّ كريمٌ يستحيي من عبدِه إذا رفع إليه يديَه أن يردَّهما صفرًا، ويستحيي أن يعذبَ ذا شيبةٍ شابت في الإسلام.

[أقسام الحياء]

وقد قُسِّمَ الحياءُ على عشرةِ أوجهٍ: حياءُ جناية، وحياءُ تقصير، وحياءُ إجلال، وحياءُ كرم، وحياءُ حشمة، وحياءُ استصغار للنفس واحتقارٍ لها، وحياءُ محبة، وحياءُ عبودية، وحياءُ شرف وعزة، وحياءُ المستحيي من نفسه.

- **فأمَّا حياءُ الجناية**: فمنه حياءُ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لما فرَّ هاربًا في الجنة.

- **وحياءُ التقصير**: كحياءِ الملائكةِ الذين يسبِّحون الليلَ والنهارَ لا يفترون، فإذا كان يومُ القيامة قالوا: سبحانَك، ما عبدناك حقَّ عبادتك!

---

(١) الترمذي (٢٤٥٨)، وأحمد (٦/ ١٨٧).

- **وحياءُ الإجلال**: هو حياءُ المعرفة، وعلى حسبِ معرفة العبد بربه يكونُ حياؤُه منه.

- **وحياءُ الكرم**: كحياءِ النبيِّ ﷺ مِن القوم الذين دعاهم إلى وليمةِ زينبَ، وطوَّلُوا الجلوسَ عنده، فقام واستحيا أن يقولَ لهم: انصرِفوا.

- **وحياءُ الحشمة**: كحياءِ علي بن أبي طالب ﷺ أن يسألَ رسولَ الله ﷺ عن المذي؛ لمكان ابنته منه.

- **وحياءُ الاستحقار واستصغار النفس**: كحياءِ العبدِ من ربه ﷻ حين يسألُه حوائجَه؛ احتقارًا لشأنِ نفسه، واستصغارًا لها.

- **وأمَّا حياءُ المحبة**: فهو حياءُ المحبِّ من محبوبه، حتى إنه إذا خطَرَ على قلبِه في غيبتِه هاج الحياءُ من قلبه، وأحسَّ به في وجهِه، ولا يدري ما سببُه، وكذلك يَعْرِضُ للمحبِّ عندَ ملاقاتِه محبوبَه ومفاجأتِه له روعةٌ شديدةٌ.

- **وأمَّا حياءُ العبودية**: فهو حياءٌ ممتزجٌ من محبةٍ وخوفٍ، ومشاهدةِ عدمِ صلاح عبوديته لمعبودِه، وأن قَدْرَه أعلى وأجلُّ منها، فعبوديتُه له توجِبُ استحياءَه منه لا محالةَ.

- **وأمَّا حياءُ الشرف والعزة**: فحياءُ النفسِ العظيمة الكبيرة إذا صدَرَ منها ما هو دون قدرِها مِن بذلٍ أو عطاءٍ وإحسان، فإنه يستحيي مع بذلِه حياءَ شرفِ نفسٍ وعزة.

- **وأمَّا حياءُ المرء من نفسه**: فهو حياءُ النفوسِ الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسِها بالنقص، وقناعتِها بالدون، فيجدُ نفسَه مستحييًا من نفسِه، حتى كأن له نفسَينِ، يستحيي بإحداهما من الأخرى، وهذا أكملُ ما يكونُ من الحياءِ فإن العبدَ إذا استحيا من نفسه فهو بأن يستحييَ من غيرِه أجدرُ.

[منزلة الصدق]

وهي منزلةُ القوم الأعظم، الذي منه تنشأُ جميعُ منازل السالكين، والطريقُ الأقومُ الذي مَن لم يسِرْ عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميزَ أهلُ النفاق من أهلِ الإيمانِ، وسكانُ الجنان من أهلِ النيران.

وقد أمر الله سبحانه أهلَ الإيمان أن يكونوا مع الصادقين، وخصَّ المنعَمَ عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، فهم الرفيقُ الأعلى، ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

ولا يزالُ الله يمدُّهم بأنعمِه وألطافِه ومزيدِه إحسانًا منه وتوفيقًا، ولهم مرتبةُ المعيةِ مع الله، فإن الله مع الصادقين، ولهم منزلةُ القربِ منه؛ إذ درجتُهم منه ثاني درجة النبيين.

وأخبرَ سبحانه أنه في يوم القيامة لا ينفعُ العبدَ وينجيه من عذابه إلا صدقُه، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]، فالذي جاء بالصدق: هو مَن شأنُه الصدقُ في قولِه وعملِه وحالِه، فالصدقُ في هذه الثلاثة.

- **فالصدقُ في الأقوال**: استواءُ اللسانِ على الأقوالِ، كاستواءِ السنبلةِ على ساقِها.

- **والصدقُ في الأعمال**: استواءُ الأفعالِ على الأمر والمتابعة، كاستواءِ الرأسِ على الجسدِ.

- **والصدقُ في الأحوال:** استواءُ أعمالِ القلب والجوارح على الإخلاصِ، واستفراغُ الوسعِ، وبذلُ الطاقة، فبذلك يكون العبدُ من الذين جاءوا بالصدقِ.

وبحسب كمالِ هذه الأمور فيه وقيامِها به تكون صديقيتُهُ؛ ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه ذروةُ سنامِ الصديقيَّةِ، سُمِّيَ الصدِّيقَ على الإطلاق، والصدِّيقُ أبلغُ من الصدوقِ، والصدوقُ أبلغُ من الصادق.

فأعلى مراتب الصدقِ مرتبةُ الصديقيةِ، وهي كمالُ الانقيادِ للرسولِ ﷺ مع كمالِ الإخلاصِ للمُرْسِلِ.

وقد أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه أن يسألَه أن يجعلَ مدخلَه ومخرجَه على الصدق، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]، وأخبَرَ عن خليلِه إبراهيمَ ﷺ أنه سألَه أن يهبَ له لسانَ صدقٍ في الآخرين، فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وبشَّر عبادَه بأن لهم عنده قدمَ صدقٍ ومقعدَ صدقٍ، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥].

فهذه خمسةُ أشياء: مدخلُ الصدق، ومخرجُ الصدق، ولسانُ الصدق، وقدمُ الصدق، ومقعدُ الصدق.

- **فمدخلُ الصدق، ومخرجُ الصدق:** أن يكونَ دخولُه وخروجُه حقًّا ثابتًا بالله، وفي مرضاته متصلًا بالظفر بالبُغْيَةِ، وحصولِ المطلوب، ضد مخرجِ الكذبِ ومدخلِه الذي لا غايةَ له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقومُ عليها، كمخرجِ أعدائِه يومَ بدر، ومخرجُ الصدق كمخرجِه ﷺ هو وأصحابُه في تلك الغزوة.

- **وأمّا لسانُ الصدق:** فهو الثناءُ الحسنُ عليه ﷺ من سائرِ الأممِ بالصدق، ليس ثناءً بالكذب، كما قال عن إبراهيمَ وذريتِه من الأنبياءِ والرسلِ عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠] والمرادُ باللسان هاهنا: الثناءُ الحسنُ. فلما كان الصدقُ باللسان - وهو محلُّه - أطلَقَ الله سبحانه ألسنةَ العباد بالثناءِ على الصادقِ، جزاءً وفاقًا، وعبَّر به عنه.

- **وأمّا قدمُ الصدق:** وحقيقةُ القدم ما قدَّموه وما يُقْدِمون عليه يومَ القيامة، وهم قَدَّموا الأعمالَ والإيمانَ بمحمدٍ ﷺ، ويُقدِمُون على الجنةِ التي هي جزاءُ ذلك.

- **وأمّا مقعدُ الصدق:** فهو الجنةُ عندَ الرب تبارك وتعالى.

وفي الصحيحين[1] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الصدقَ يهدِي إلى البرِّ، وإن البرَّ يهدِي إلى الجنة، وإن الرجلَ ليصدُقُ حتى يكتبَ عند الله صديقًا، وإن الكذبَ يهدِي إلى الفجورِ، وإن الفجورَ يهدي إلى النارِ، وإن الرجلَ ليكذبُ حتى يكتبَ عند الله كذَّابًا**». فجعل الصدقَ مفتاحَ الصديقيةِ ومبدأَها، وهي غايتُه، فلا يُنال درجتَها كاذبٌ ألبتةَ، لا في قولِه، ولا في عملِه، ولا في حالِه، ولاسيما كاذبٌ على الله في أسمائِه وصفاته، ونفيِ ما أثبتَه، أو إثباتِ ما نفاه عن نفسه، فليس في هؤلاء صدِّيقٌ أبدًا.

[منزلة الإيثار]

قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

---

(١) البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

فالإيثارُ ضد الشحِّ، فإن المؤثِرَ على نفسِه تاركٌ لما هو محتاجٌ إليه، والشحيحُ حريصٌ على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيءٌ شحَّ عليه، وبخل بإخراجِه، فالبخلُ ثمرةُ الشحِّ، والشحُّ يأمرُ بالبخل، كما قال النبي ﷺ: «**إياكم والشحَّ! فإن الشحَّ أهلَكَ مَن كان قبلَكم، أمَرَهم بالبخلِ فبَخِلُوا، وأمَرَهم بالقطيعةِ فقطَعُوا**»[1].

قال عبد الله بن المبارك: سخاءُ النفس عما في أيدي الناس أفضلُ من سخاء النفس بالبذل.

وهذا المنزلُ هو منزلُ الجودِ والسخاء والإحسان، وسُمِّيَ بمنزل الإيثارِ لأنه أعلى مراتبِه، فإن المراتبَ ثلاثةٌ:

إحداها: ألَّا ينقصَه البذلُ، ولا يَصْعُبَ عليه، فهو منزلةُ السخاء.

الثانية: أن يُعطيَ الأكثرَ، ويُبقي له شيئًا، أو يُبقيَ مثلَ ما أعطى، فهو الجودُ.

الثالثة: أن يؤثِرَ غيرَه بالشيء مع حاجتِه إليه، وهو مرتبةُ الإيثار، وعكسُها الأثرةُ وهو استئثارُه عن أخيه بما هو محتاجٌ إليه، وهي المرتبةُ التي قال فيها رسول الله ﷺ للأنصار ﷺ: «**إنكم ستَلْقَون بعدي أثرةً، فاصبِرُوا حتى تلقَوْني على الحوضِ**»[2].

فصل [مراتب الجود]

والجودُ عشرُ مراتبَ:

إحداها: الجودُ بالنفس، وهو أعلى مراتبِه.

الثانية: الجودُ بالرياسة، وهو ثاني مراتبِ الجودِ، فيحملُ الجوادَ جودُه على امتهانِ رياسته، والجودِ بها، والإيثارِ في قضاء حاجات الملتمس.

---

(١) أبو داود (١٦٩٨)، وأحمد (١١/ ٤٢٨).

(٢) البخاري (٣٧٩٢، ٣٧٩٣، وأخر)، ومسلم (١٠٦١، ١٨٤٥).

الثالثة: الجودُ براحتِه ورفاهيته، وإجمامِ نفسه، فيجودُ بها تعبًا وكدًّا في مصلحةِ غيره، ومِن هذا جودُ الإنسان بنومِه ولذتِه لمسامرِه.

الرابعة: الجودُ بالعلم وبذله، وهو من أعلى مراتبِ الجودِ، والجودُ به أفضلُ من الجودِ بالمال؛ لأن العلمَ أشرفُ من المال.

الخامسة: الجودُ بالنفع بالجاه، كالشفاعةِ والمشي مع الرجلِ إلى ذي سلطان ونحوه، وذلك زكاةُ الجاهِ المطالب بها العبد، كما أن التعليمَ وبذلَ العلم زكاتُه.

السادسة: الجودُ بنفعِ البدنِ على اختلافِ أنواعِه، كما قال ﷺ: «**يصبحُ على كلِّ سُلامَى من أحدِكم صدقةٌ كلَّ يوم تطلعُ فيه الشمسُ: يعدلُ بين اثنين صدقةٌ، ويعينُ الرجلَ في دابته فيحملُه عليها أو يرفعُ له عليها متاعَه صدقةٌ، والكلمةُ الطيبة صدقةٌ، وبكل خطوةٍ يمشيها الرجل إلى الصلاةِ صدقةٌ، ويميطُ الأذى عن الطريقِ صدقةٌ**»[1].

السابعة: الجودُ بالعِرْضِ، كجود أبي ضَمْضَمٍ من الصحابةِ ﷺ، كان إذا أصبحَ قال: اللهمَّ إنه لا مالَ لي أتصدَّقُ به على الناسِ، وقد تصدقتُ عليهم بعِرْضِي، فمَن شتمنَي أو قذفَني فهو في حلٍّ. وفي هذا الجودِ مِن سلامةِ الصدر، وراحةِ القلب، والتخلصِ من معاداةِ الخلق ما فيه.

الثامنة: الجودُ بالصبرِ والاحتمالِ والإغضاءِ، وهذه مرتبةٌ شريفةٌ من مراتبِه، وهي أنفعُ لصاحبها من الجودِ بالمال، وأعزُّ له وأنصرُ، وأملكُ لنفسِه، وأشرفُ لها، ولا يقدرُ عليها إلا النفوسُ الكبارُ.

---

(١) مسلم (٧٢٠).

التاسعة: الجودُ بالخُلُقِ والبشرِ والبسطةِ، وهو فوقَ الجودِ بالصبرِ والاحتمالِ والعفوِ، وهو الذي بلَغَ بصاحبه درجةَ الصائمِ القائم، وهو أثقلُ ما يُوضعُ في الميزانِ، قال النبي ﷺ: «**لا تَحْقِرَنَّ من المعروفِ شيئًا، ولو أن تَلْقَى أخاك ووجهُك منبسطٌ إليه**»[1]. وفي هذا الجودِ مِن المنافعِ والمسارِّ وأنواعِ المصالح ما فيه، والعبدُ لا يمكنُه أن يسعَ الناسَ بماله ويمكنُه أن يسعَهم بخلُقِه واحتمالِه.

العاشرة: الجودُ بتركِه ما في أيدي الناس عليهم، فلا يلتفتُ إليه، ولا يستشرِفُ له بقلبِه، ولا يتعرَّضُ له بحاله، ولا لسانه، وهذا الذي قال عبد الله بن المبارك: إنه أفضلُ من سخاءِ النفس بالبذل.

[منزلة الخلُق]

قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وفي الصحيحين[2]: أن هشام بن حكيم سأل عائشة ﵂ عن خلُقِ رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان خلقُه القرآنَ.

وقد جمع الله له مكارمَ الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ولا ريبَ أن للمطاعِ مع الناس ثلاثةَ أحوال:

أحدها: أمرُهم ونهيهم بما فيه مصلحتِهم.

الثاني: أخذُه منهم ما يَبذُلونه مما عليهم من الطاعةِ.

الثالث: أن الناسَ معه قسمان: موافقٌ له موالٍ، ومعادٍ له معارضٌ.

وعليه في كل واحدٍ من هذه واجبٌ:

(١) مسلم (٦٤٨).

(٢) مسلم (٧٤٦)، ولم أقف عليه عند البخاري.

فواجبُه في أمرهم ونهيهم: أن يأمرَ بالمعروف، وهو المعروفُ الذي به صلاحُهم وصلاحُ شأنهم، وينهاهم عن ضدِّه.

وواجبُه فيما يبذلونه له من الطاعةِ: أن يأخذَ منهم ما سهلَ عليهم، وطوعت له به أنفسُهم، سماحةً واختيارًا، ولا يحملُهم على العنتِ والمشقة فيفسدُهم.

وواجبُه عند جهلِ الجاهلين عليه: الإعراضُ عنهم، وعدمُ مقابلتِهم بالمثل والانتقامِ منهم لنفسه، فقد قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وهكذا كان خلُقُه ﷺ، قال أنس ﵁: «كان رسولُ الله ﷺ أحسنَ الناس خلقًا»[١]، وقال: «ولقد خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشرَ سنين فما قال لي قطُّ: أفٍّ، ولا قال لشيء فعلتُه: لمَ فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعَلْه: ألَا فعلتَ كذا»[٢]؟

وفي صحيح مسلم[٣] عن النواس بن سمعان ﵁ قال: «سألتُ رسولَ الله ﷺ عن البرِّ والإثمِ؟ فقال: **البرُّ حسنُ الخلق، والإثمُ ما حاك في صدرِك وكرهتُ أن يطلعَ عليه الناسُ**».

فقابل البرَّ بالإثم، وأخبرَ أن البرَّ حسنُ الخلق، والإثمَ حَوازُ الصدورِ، وهذا يدلُّ على أن حسنَ الخلُقِ هو الدينُّ كله، وهو حقائقُ الإيمان وشرائعُ الإسلام؛ ولهذا قابله بالإثمِ.

---

(١) البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٦٥٩، ٢١٥٠، ٢٣١٠).

(٢) البخاري (٢٧٦٨، ٦٠٣٨، ٦٩١١)، ومسلم (٦٥٩، ٢٣٠٩).

(٣) مسلم (٢٥٥٣).

وعن عائشة عنه ﷺ: **«إن المؤمنَ ليُدركُ بحسنِ خلُقِه درجةَ الصائم القائم»** رواه أبو داود[١].

وفي الترمذي عن جابر ﷺ عنه ﷺ: **«إن من أحبِّكم إليَّ وأقربِكم مني مجلسًا يومَ القيامة: أحاسنُكم أخلاقًا»**[٢].

فصل [أركان الأخلاق الفاضلة والأخلاق السافلة]

وحسنُ الخلق يقومُ على أربعةِ أركانٍ لا يتصورُ قيامُ ساقه إلا عليها: الصبرُ، والعفةُ، والشجاعةُ، والعدلُ.

فالصبرُ: يحملُه على الاحتمالِ وكظمِ الغيظ، وكفِّ الأذى، والحلمِ والأناةِ والرفقِ، وعدم الطيشِ والعجلةِ.

والعفةُ: تحملُه على اجتنابِ الرذائلِ والقبائح من القولِ والفعل، وتحملُه على الحياءِ وهو رأسُ كل خيرٍ، وتمنعُه من الفحشاءِ، والبخل والكذب، والغيبة والنميمة.

والشجاعةُ: تحملُه على عزةِ النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذلِ والندى، وتحملُه على كظمِ الغيظ، والحلم، كما قال النبي ﷺ: **«ليس الشديدُ بالصرعةِ، إنما الشديدُ: الذي يملِكُ نفسَه عندَ الغضبِ»**[٣].

والعدلُ: يحملُه على اعتدالِ أخلاقِه، وتوسطِه فيها بين طرفَي الإفراط والتفريط، فيحملُه على خلُقِ الجودِ والسخاء الذي هو توسطٌ بين الإمساكِ والإسراف والتبذير، وعلى خلُقِ الحياءِ الذي هو توسطٌ بين الذلِّ والقِحَةِ[٤].

---

(١) أبو داود (٤٧٩٨)، وأحمد (٤٠/ ٤١٤، ٤١/ ١٤٥، وأخر).

(٢) الترمذي (٢١٠٨).

(٣) البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٤) القحة: الوقاحة، وهي قلة الحياء.

ومنشأُ جميعِ الأخلاقِ السافلة وبناؤُها على أربعةِ أركان: الجهلُ، والظلمُ، والشهوةُ، والغضبُ.

فالجهلُ: يُريه الحسنَ في صورةِ القبيح، والقبيحَ في صورةِ الحسن، والكمالَ نقصًا، والنقصَ كمالًا.

والظلمُ: يحملُه على وضع الشيء في غيرِ موضعه، فيغضبُ في موضع الرضا، ويرضَى في موضع الغضبِ، ويجهلُ في موضع الأناةِ.

والشهوةُ: تحملُه على الحرصِ والشحِّ والبخلِ، وعدم العفةِ والنهمةِ والجشعِ، والذلِّ والدناءاتِ كلها.

والغضبُ: يحملُه على الكبرِ والحقد والحسد، والعدوان والسفه.

ويتركَّبُ من بين كلِّ خلقَينِ من هذه الأخلاق: أخلاقٌ مذمومةٌ.

وكلُّ خلُقٍ محمود مكتنفٌ بخلقَينِ ذميمَينِ، وهو وسطٌ بينهما، وطرفاه خلُقانِ ذميمانِ، كالجودِ الذي يكتنفه خلُقَا البخلِ والتبذيرِ، والتواضعُ الذي يكتنفه خلُقَا الذلِّ والمهانةِ والكبرِ والعلوِّ، فإن النفسَ متى انحرفت عن التوسطِ انحرفت إلى أحدِ الخلُقَينِ الذميمَينِ ولا بدَّ.

فصل [كيفية تغيير الأخلاق التي طبعت النفوس عليها]

إن أصعبَ ما على الطبيعةِ الإنسانية: تغييرُ الأخلاقِ التي طُبعت النفوسُ عليها، وهذا فصلٌ يصلُ به السالكُ مع تلك الأخلاق، ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتها، ويكون سيرُه أقوى وأجلَّ وأسرعَ مِن سيرِ العاملِ على إزالتها.

ونقدِّمُ قبلَ هذا مثلًا نضربُه مطابقًا لما نريدُه، وهو: نهر جارٍ في صببِه ومنحدرِه، ومنتهٍ إلى تغريقِ أرضٍ وعُمرانٍ ودورٍ، وأصحابُها يعلمون أنه لا ينتهي حتى يخرِّبَ دورَهم، ويتلفَ أراضيهم وأموالَهم، فانقسموا ثلاثَ فرقٍ:

- **فرقةٌ** صرفَتْ قواها وقوى أعمالِها إلى سَكْرِه وحبسِه وإيقافِه، فلا تصنعُ هذه الفرقةُ كبيرَ أمرٍ، فإنه يوشكُ أن يجتمعَ ثم يحمل على السَّكْرِ، فيكون إفسادُه وتخريبُه أعظمَ.

- **وفرقةٌ** رأت هذه الحالةَ وعلمَتْ أنه لا يُغني عنها شيئًا، فقالت: لا خلاصَ من محذورِه إلا بقطعِه من أصلِ الينبوع، فرامت قطعَه مِن أصلِه، فتعذَّر عليها ذلك غايةَ التعذر، وأبَتْ الطبيعةُ النهرية عليهم ذلك أشدَّ الإباء، فهم دائمًا في قطعِ الينبوع، وكلما سدُّوه من موضعٍ نبعَ من موضعٍ، فاشتغلَ هؤلاء بشأن هذا النهرِ عن الزراعاتِ والعماراتِ وغرسِ الأشجار.

- **فجاءت فرقةٌ ثالثةٌ** خالفَتْ رأيَ الفرقتين، وعلموا أنهم قد ضاعَ عليهم كثيرٌ من مصالحِهم، فأخذوا في صرفِ ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلى العمرانِ، فصرفوه إلى موضعٍ ينتفعون بوصولِه إليه ولا يتضرَّرون به، فصرفوه إلى أرضٍ قابلة للنبات، وسقَوها به، فأنبتَتْ أنواعَ العشبِ والكلأِ والثمارِ المختلفة الأصناف، فكانت هذه الفرقةُ هم أصوبَ الفرق في شأن هذا النهرِ.

فإذا تبيَّنَ هذا المثلُ فالله سبحانه قد اقتضَتْ حكمتُه أن ركَّبَ الإنسانَ - بل وسائر الحيوان - على طبيعةٍ محمولةٍ على قوتين: غضبيةٍ، وشهوانيةٍ وهي الإرادية.

وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاقِ النفس وصفاتِها، وهما مركوزتان في جبلةِ كلِّ حيوان، فبقوةِ الشهوةِ والإرادة يجذبُ المنافعَ إلى نفسِه، وبقوةِ الغضبِ يدفعُ المضارَّ عنها.

فإذا تبيَّن هذا فالنهرُ مثالُ هاتين القوتين، وهو منصبٌّ في جدول الطبيعةِ ومجراها إلى دورِ القلب وعُمرانِه وحواصلِه، يخربُها ويتلفُها ولابدَّ، فالنفوسُ الجاهلةُ الظالمةُ تركَتْه ومجراه؛ فخرَّبَ ديارَ الإيمان، وقلعَ آثارَه، وهدمَ عمرانَه، وأنبتَ

موضعَها كلَّ شجرة خبيثة، مِن حنظلٍ وضريعٍ وشوكٍ وزقُّومٍ، وهو الذي يأكلُه أهلُ النار يومَ القيامة يومَ المعاد، وأمَّا النفوسُ الزكية الفاضلة فإنها رأت ما يئولُ إليه أمرُ هذا النهر فافترقوا ثلاثَ فرقٍ:

- **فأصحابُ الرياضاتِ والمجاهدات والخلوات والتمرينات** رامُوا قطعَه من ينبوعِه، فأبَتْ عليهم ذلك حكمةُ الله تعالى، وما طُبِعَ عليه الجبلة البشرية، ولم تنقَدْ له الطبيعةُ، فاشتدَّ القتالُ، ودامَ الحربُ، وحمِيَ الوطيسُ، وصارت الحربُ دولًا وسجالًا، وهؤلاء صرفوا قواهم إلى مجاهدةِ النفس على إزالةِ تلك الصفاتِ.

- **وفرقةٌ أعرضوا عنها، وشغلوا نفوسَهم بالأعمال**، ولم يُجيبوا دواعيَ تلك الصفاتِ مع تخليتهم إياها على مجراها، لكن لم يمكنوا نهرَها من إفسادِ عمرانِهم، بل اشتغلوا بتحصينِ العمرانِ، وإحكامِ بنائِه وأساسِه ورأَوا أن ذلك النهرَ لابدَّ أن يصلَ إليه، فإذا وصلَ وصلَ إلى بناءٍ محكمٍ فلم يهدِّمْه، بل أخذَ عنه يمينًا وشمالًا، فهؤلاء صرفوا قوةَ عزيمتِهم وإرادتِهم في العمارةِ، وإحكامِ البناء، وأولئك صرفوها في قطعِ المادةِ الفاسدة من أصلِها؛ خوفًا من هدم البناء.

الفرقةُ الثالثةُ: رأت أن هذه الصفاتِ ما خُلِقَتْ سدًى ولا عبثًا، وأنها بمنزلةِ ماءٍ يُسقَى به الوردُ، والشوك، والثمار، والحطب، وأنها صوانٌ وأصدافٌ لجواهر منطوية عليها، وأن ما خاف منها أولئك هو نفسُ سببِ الفلاحِ والظفر، فرأَوا أن الكبرَ نهرٌ يُسقى به العلوُّ والفخر، والبطرُ والظلم والعدوان، ويُسقى به علوُّ الهمة، والأنفة، والحمية، والمراغمةُ لأعداء الله، وقهرُهم والعلو عليهم، وهذه درةٌ في صدفته، فصرفوا مجراه إلى هذا الغراسِ، واستخرجوا هذه الدرةَ من صدفتِه، وأبقَوه على حالِه في نفوسِهم، لكن استعملوه حيث يكون استعمالُه أنفعَ.

[هل الخُلق جبلي أم كسبي]

فإن قلت: هل يمكن أن يقع الخُلُقُ كسبيًّا، أو هو أمرٌ خارج عن الكسبِ؟

قلت: يمكنُ أن يقعَ كسبيًّا بالتخلُّقِ والتكلفِ، حتى يصيرَ له سجيةً وملكة، وقد قال النبي ﷺ لأشج عبد القيس ﵁: «**إن فيك لخُلُقَينِ يحبُّهما الله: الحلمَ، والأناةَ. فقال: أخلُقَينِ تخلَّقتُ بهما، أم جبلَنِي الله عليهما؟ فقال: بل جبلَكَ الله عليهما. فقال: الحمدُ لله الذي جبلَنِي على خلُقَينِ يحبهما اللهُ ورسولهُ**»[1].

فدلَّ على أن من الخلُقِ ما هو طبيعةٌ وجبلةٌ، وما هو مكتسبٌ، وكان النبيُّ ﷺ يقول في دعاءِ الاستفتاح «**اللهمَّ اهدِني لأحسنِ الأخلاقِ، لا يَهْدِي لأحسنِها إلا أنتَ، واصرِفْ عني سيئَها، لا يصرِفْ عني سيئَها إلا أنتَ**»[2]. فذكَرَ الكسبَ والقدرَ، والله أعلم.

[فصل مشاهد العبد فيما يصيبه من أذى الخلق]

وهاهنا للعبدِ أحدَ عشرَ مشهدًا فيما يُصيبُه مِن أذى الخَلْقِ وجنايتِهم عليه:

[المشهد الأول: مشهد القدر]

أنَّ ما جرَى عليه بمشيئةِ الله وقضائِه وقدرِه، فيراه كالتأذِّي بالحرِّ والبردِ، والمرضِ والألمِ، وهبوبِ الرياحِ، وانقطاعِ الأمطار، فإن الكلَّ أوجبَتْه مشيئةُ الله، فما شاء الله كان ووجَبَ وجودُه، وما لم يشأ لم يكن وامتنَعَ وجودُه، وإذا شَهِدَ هذا استراح، وعلم أنه كائنٌ لا محالةَ، فما للجزعِ منه وجهٌ، وهو كالجزع من الحرِّ والبردِ والمرضِ والموتِ.

(١) أبو داود (٥٢٢٥)، وأحمد (٣٩/ ٤٩٠).

(٢) مسلم (٧٧١).

المشهد الثاني: مشهد الصبر

فيشهدُه ويشهدُ وجوبَه، وحسنَ عاقبتِه، وجزاءَ أهله، وما يترتبُ عليه من الغبطةِ والسرور، ويخلصُه من ندامةِ المقابلةِ والانتقام، فما انتَقَمَ أحدٌ لنفسه قطُّ إلا أعقبَهُ ذلك ندامةٌ، وعَلِمَ أنه إن لم يصبِرْ اختيارًا على هذا - وهو محمود - صبَرَ اضطرارًا على أكبرَ منه وهو مذمومٌ.

المشهد الثالث: مشهد العفو والصفح والحلم

فإنه متى شَهِدَ ذلك وفضلَه وحلاوته وعزته لم يعدِلْ عنه إلا لعَشًى في بصيرتِه؛ فإنه «**ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا**»[1] كما صحَّ ذلك عن النبي ﷺ وعُلِمَ بالتجربة والوجودِ، وما انتقم أحدٌ لنفسه إلا ذلَّ.

هذا وفي الصفحِ والعفوِ والحلمِ من الحلاوةِ والطمأنينةِ والسكينة، وشرف النفس، وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام - ما ليس شيءٌ منه في المقابلةِ والانتقامِ.

المشهد الرابع: مشهد الرضا

وهو فوقَ مشهدِ العفوِ والصفح، وهذا لا يكونُ إلا للنفوسِ المطمئنَّة، سيما إن كان مَن أُصيبَتْ به سببُه القيامُ لله، فإذا كان ما أُصيبَ به في الله وفي مرضاتِه ومحبته رَضِيَتْ بما نالها في الله، وهذا شأنُ كلِّ محبٍّ صادق، يرضَى بما يَناله في رضا محبوبِه من المكارهِ، ومتى تَسخَّطَ به وتشكَّى منه كان ذلك دليلًا على كذبِه في محبته.

المشهد الخامس: مشهد الإحسان

وهو أرفعُ ممَّا قبلَه، وهو أن يقابلَ إساءةَ المسيءِ إليه بالإحسانِ، فيُحسنُ إليه كلَّما أساءَ هو إليه، ويهوِّنُ هذا عليه علمُه بأنه قد رَبِحَ عليه، وأنه قد أهدَى إليه حسناتِه،

---

(١) مسلم (٢٥٨٨).

ومحاها من صحيفتِه، وأثبتَها في صحيفةِ مَن أساءِ إليه، فينبغي لك أن تشكرَه، وتُحسنُ إليه بما لا نسبةَ له إلى ما أحسنَ به إليك.

ويهوِّنُه عليك أيضًا علمُك بأن الجزاءَ من جنس العمل، فإن كان هذا عملَك في إساءة المخلوق إليك عفوتُ عنه وأحسنتُ إليه مع حاجتِك وضعفك وفقرك وذلك - فهكذا يَفعلُ المحسنُ القادرُ العزيز الغني بك في إساءتِك يقابلُها بما قابلتَ به إساءةَ عبده إليك، فهذا لابدَّ منه، وشاهدُه في السنة من وجوهٍ كثيرة لمن تأملها.

المشهد السادس: مشهد السلامة وبرد القلب

وهذا مشهدٌ شريفٌ جدًّا لمن عرَفَه، وذاقَ حلاوتَه، وهو ألَّا يشتغلَ قلبُه وسرُّه بما ناله مِن الأذى، وطلبِ الوصول إلى دركِ ثأرِه، وشفاءِ نفسه، بل يفرِغُ قلبَه من ذلك، ويرى أن سلامتَه وبردَه وخلوَّه منه أنفعُ له، وألذُّ وأطيبُ، وأعونُ على مصالِحِه، فإن القلبَ إذا اشتغلَ بشيء فاتَه ما هو أهمُّ عنده، وخيرٌ له منه، فيكون بذلك مغبونًا، والرشيدُ لا يرضَى بذلك.

المشهد السابع: مشهد الأمن

فإنه إذا ترك المقابلةَ والانتقامَ أَمِنَ ما هو شرٌّ من ذلك، وإذا انتقمَ واقعَهُ الخوفُ ولابدَّ، فإن ذلك يزرعُ العداوةَ، والعاقلُ لا يأمنُ عدوَّه ولو كان حقيرًا، فكم من حقيرٍ أردَى عدوَّه الكبيرَ؟!

المشهد الثامن: مشهد الجهاد

وهو أن يشهدَ تولُّدَ أذى الناسِ له من جهادِه في سبيلِ الله، وأمرِهم بالمعروف، ونهيِهم عن المنكر، وإقامةِ دين الله، وإعلاءِ كلماته.

وصاحبُ هذا المقامِ قد اشترَى اللهُ منه نفسَه وماله وعرضه بأعظمِ الثمنِ، فإن أرادَ أن يُسَلَّمَ إليه الثمنُ فليسلِّمْ هو السلعةَ؛ ليستحقَّ ثمنَها: فلا حقَّ له على من آذاه، ولا شيءَ له قبله إن كان قد رَضِيَ بعقدِ هذا التبايع، فإنه قد وجَبَ أجرُه على الله.

وهذا ثابتٌ بالنصِّ وإجماعِ الصحابة ﷺ، ولهذا منعَ النبيُّ ﷺ المهاجرين مِن سُكْنَى مكة - أعزَّها الله - ولم يردَّ على أحدٍ منهم دارَه ولا مالَه الذي أخذه الكفارُ، ولم يُضَمِّنْهم ديةَ مَن قتلوه في سبيلِ الله.

فمن قام لله حتى أُوذِيَ في الله حرَّمَ اللهُ عليه الانتقامَ، كما قال لقمانُ لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

المشهد التاسع: مشهد النعمة

وذلك من وجوهٍ:

أحدها: أن يشهدَ نعمةَ الله عليه في أن جعلَه مظلومًا يترقبُ النصرَ، ولم يجعَلْه ظالمًا يترقبُ المقتَ والأخذ، فلو خُيِّرَ العاقلُ بين الحالتين - ولابدَّ من إحداهما - لاختار أن يكونَ مظلومًا.

ومنها: أن يشهدَ نعمةَ الله في التكفيرِ بذلك مِن خطاياه، فإنه ما أصابَ المؤمنَ همٌّ ولا غمٌّ ولا أذًى إلا كفَّرَ الله به من خطاياه.

ومنها: أن يشهدَ كونَ تلك البليةِ أهونَ وأسهلَ مِن غيرِها، فإنه ما من محنةٍ إلا وفوقها ما هو أقوى منها وأمرُّ، فإن لم يكن فوقها محنةٌ في البدنِ والمال فلينظُرْ إلى سلامةِ دينِه وإسلامه وتوحيده، وأن كلَّ مصيبةٍ دون مصيبة الدين فهينةٌ، وأنها في الحقيقة نعمةٌ، والمصيبةُ الحقيقيةُ مصيبةُ الدين.

المشهد العاشر: مشهد الأسوة

وهو مشهدٌ شريفٌ لطيفٌ جدًّا، فإن العاقلَ اللبيبَ يرضَى أن يكونَ له أسوةٌ برسلِ الله، وأنبيائِه وأوليائِه، وخاصتِه مِن خلقِه؛ فإنهم أشدُّ الخلقِ امتحانًا بالناس، وأذَى الناسِ إليهم أسرعُ من السيلِ في الحدورِ.

المشهد الحادي عشر: مشهد التوحيد

وهو أجلُّ المشاهدِ وأرفعُها، فإذا امتلأ قلبُه بمحبةِ الله، والإخلاصِ له ومعاملتِه، وإيثارِ مرضاته، والتقربِ إليه، وقرةِ العين به، والأنسِ به، واطمأنَّ إليه، وسكَنَ إليه، واشتاقَ إلى لقائه، واتخذه وليًّا دون مَن سواه، بحيث فوَّضَ إليه أمورَه كلَّها، ورَضِيَ به وبأقضيتِه، وفَنِيَ بحبِّه وخوفه ورجائه وذكرِه والتوكل عليه عن كل ما سواه - فإنه لا يبقَى في قلبه متسعٌ لشهود أذى الناسِ له ألبتةَ، فضلًا عن أن يشتغلَ قلبُه وفكرُه وسرُّه بتطلبِ الانتقام والمقابلة.

فصل [مدار حسن الخلق]

ومدارُ حسنِ الخلقِ مع الحقِّ ومع الخلق على حرفَينِ ذكرهما عبدُ القادر الكيلاني، فقال: كُنْ مع الحقِّ بلا خَلْق. ومع الخَلْق بلا نفسٍ.

فتأمل، ما أجلَّ هاتين الكلمتين مع اختصارِهما! وما أجمَعَها لقواعِد السلوك ولكلِّ خلق جميل!

وفسادُ الخلُقِ إنما ينشأُ من توسطِ الخَلْقِ بينك وبين الله تعالى، وتوسطِ النفس بينك وبين خَلْقه، فمتى عزلْتَ الخلقَ حال كونِك مع الله تعالى، وعزلَتْ النفسَ حال كونِك مع الخلق - فقد فزتَ بكل ما أشارَ إليه القومُ وشمَّرُوا إليه وحاموا حوله. والله المستعان.

[منزلة التواضع]

قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] أي: سكينة ووقارًا متواضعين، غيرَ أَشِرينَ، ولا مَرِحِينَ، ولا متكبِّرِينَ.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤]، لم يُرِدْ به ذلَّ الهوان الذي صاحبه ذليلٌ، وإنما هو ذلُّ اللينِ والانقياد الذي صاحبه ذلولٌ، فالمؤمنُ ذلولٌ.

وفي صحيح مسلم[١] من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله أوحَى إليَّ أن تواضعُوا، حتى لا يفخرَ أحدٌ على أحدٍ، ولا يَبغِي أحدٌ على أحد»**.

وفي صحيح مسلم[٢] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كبرٍ»**.

وفي صحيح مسلم[٣] عن أبي سعيد وعن أبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله عز وجل: العزةُ إزارِي، والكبرياءُ ردائِي، فمَن نازعَني عذبتُه»**.

وكان النبي ﷺ يمرُّ على الصبيانِ فيسلِّمُ عليهم، وكانت الأمَةُ تأخذُ بيدِه ﷺ فتنطلقُ به حيث شاءت، وكان ﷺ إذا أكلَ لعقَ أصابعَه الثلاث، وكان ﷺ يكون في بيته في خدمةِ أهلِه، ولم يكن ينتقمُ لنفسه قطُّ، وكان ﷺ يخصفُ نعلَه، ويرقعُ ثوبَه، ويحلبُ الشاةَ لأهله، ويعلفُ البعيرَ ويأكلُ مع الخادم، ويُجالسُ المساكين، ويمشي مع

(١) مسلم (٢٨٦٥).
(٢) مسلم (٩١).
(٣) مسلم (٢٠٢٦).

الأرملةِ واليتيمِ في حاجتهما، ويبدأُ مَن لقيه بالسلام، ويجيبُ دعوةَ مَن دعاه ولو إلى أيسرِ شيءٍ، وكان ﷺ هينَ المؤنة، لينَ الخلق،كريمَ الطبع، جميلَ المعاشرة، طَلْقَ الوجه بسامًا، متواضعًا من غير ذلة، جوادًا من غير سرف، رقيقَ القلب، رحيمًا بكل مسلم، خافضَ الجناح للمؤمنين، لينَ الجانب لهم.

فصل [تعريف التواضع]

قيل: التواضعُ ألَّا ترى لنفسِك قيمةً، فمَن رأى لنفسِه قيمةً فليس له في التواضعِ نصيبٌ.

وقال الجنيد بن محمد: هو خفضُ الجناح، ولينُ الجانب.

وقال أبو يزيد البسطامي: هو ألَّا يرَى لنفسِه مقامًا ولا حالًا، ولا يرَى في الخلقِ شرًّا منه.

[من سير الصحابة في التواضع]

وقال عروةُ بن الزبير رضي الله عنه: رأيتُ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقِه قربةُ ماءٍ، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، لا ينبغي لك هذا! فقال: لما أتاني الوفودُ سامعين مطيعين دخلَتْ نفسي نخوةٌ؛ فأردتُ أن أكسرَها.

وولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارةً مرَّةً، فكان يحملُ حزمةَ الحطبِ على ظهرِه ويقول: طرِّقُوا للأمير.

وركبَ زيدُ بن ثابت مرَّةً، فدنا ابنُ عباس ليأخذَ بركابِه، فقال: مَه يا ابن عم رسول الله! فقال: هكذا أُمِرْنا أن نفعلَ بكبرائِنا. فقال: أرني يدَك. فأخرجها إليه، فقبَّلَها، فقال: هكذا أُمِرْنا نفعل بأهلِ بيتِ رسول الله ﷺ.

فصل [أول ذنب عصى الله به أبوا الثقلين]

أولُ ذنبٍ عصَى اللهَ به أبوا الثقلين: الكبرُ والحرصُ، فكان الكبُر ذنبَ إبليس اللعين، فآلَ أمرُه إلى ما آلَ إليه، وذنبُ آدمَ - على نبينا وعليه السلام - كان من الحرصِ والشهوة، فكان عاقبتُه التوبةَ والهدايةَ، وذنبُ إبليس حملَه على الاحتجاجِ بالقدرِ والإصرارِ، وذنبُ آدمَ أوجبَ له إضافتَه إلى نفسه، والاعترافَ به والاستغفارَ.

فأهلُ الكبرِ والإصرارِ والاحتجاجِ بالأقدارِ مع شيخِهم وقائدِهم إلى النارِ إبليس، وأهلُ الشهوة المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوبِ، الذين لا يحتجون عليها بالقدر مع أبيهم آدمَ في الجنةِ.

[منزلة المروءة]

حقيقتها: اتصافُ النفسِ بصفات الإنسانِ التي فارَقَ بها الحيوانَ البهيم، والشيطانَ الرجيم، فإن في النفس ثلاثةَ دواعٍ متجاذبةً:

- داعٍ يدعوها إلى الاتصافِ بأخلاقِ الشيطان: من الكبرِ، والحسدِ، والعلو، والبغي، والشر، والأذى، والفساد، والغش.

- وداعٍ يدعوها إلى أخلاقِ الحيوان، وهو داعي الشهوة.

- وداعٍ يدعوها إلى أخلاقِ المَلَكِ: من الإحسانِ، والنصحِ، والبرِّ، والعلمِ، والطاعةِ.

فحقيقةُ المروءة: بغضُ ذينك الداعيَينِ، وإجابةُ الداعي الثالث.

وقلةُ المروءة وعدمها: هو الاسترسالُ مع ذينك الداعيَينِ، والتوجهُ لدعوتهما أين كانت.

فالإنسانيةُ والمروءةُ والفتوة كلها في عصيانِ الداعيَينِ وإجابةِ الداعي الثالث، كما قال بعضُ السلف: خلَقَ اللهُ الملائكة عقولًا بلا شهوةٍ، وخلقَ البهائمَ شهوةً بلا عقول، وخلقَ ابنَ آدم وركَّب فيه العقلَ والشهوةَ؛ فمن غلبَ عقلُه شهوتَه التحق بالملائكة، ومن غلبَتْ شهوتُه عقلَه التحق بالبهائم.

ولهذا قيل في حدِّ المروءة:

- إنها غلبةُ العقلِ للشهوة.

- وقال الفقهاءُ في حدِّها: هي استعمالُ ما يجمِّلُ العبدَ ويزينُه، وتركُ ما يدنسُه ويشينُه.

- وقيل: المروءةُ: استعمالُ كل خلُقٍ حسنٍ، واجتنابُ كل خلقٍ قبيحٍ.

وحقيقةُ المروءة: تجنبٌ للدنايا والرذائلِ: من الأقوالِ، والأخلاقِ، والأعمالِ.

- **فمروءةُ اللسان**: حلاوتُه وطيبُه ولينُه واجتناءُ الثمارِ منه بسهولةٍ ويسرٍ.

- **ومروءةُ الخلق**: سعتُه وبسطُه للحبيبِ والبغيض.

- **ومروءةُ المال**: الإصابةُ ببذلِه مواقعَه المحمودةَ عقلًا وعرفًا وشرعًا.

- **ومروءةُ الجاه**: بذلُه للمحتاج إليه.

- **ومروءةُ الإحسان**: تعجيلُه وتيسيرُه وتوفيرُه، وعدمُ رؤيتِه حالَ وقوعِه، ونسيانُه بعدَ وقوعِه، **فهذه مروءةُ البذلِ**.

- **وأما مروءةُ الترك**: فتركُ الخصامِ والمعاتبةِ والمطالبةِ والمماراةِ، والإغضاءُ عن عيبِ ما يأخذُه من حقِّك، وتركُ الاستقصاءِ في طلبِه، والتغافلُ عن عثراتِ الناسِ، وإشعارُهم أنك لا تعلمُ لأحدٍ منهم عثرةً، والتوقيرُ للكبيرِ، وحفظُ حرمةِ النظيرِ، ورعايةُ أدبِ الصغيرِ.

وهي على ثلاثِ درجاتٍ.

- **الدرجة الأولى**: مروءةُ المرءِ مع نفسِه، وهي أن يحملَها قسرًا على ما يجملُ ويزينُ، وتركُ ما يدنسُ ويشينُ، ليصيرَ لها ملكةً في العلانية، فلا يفعلُ خاليًا ما يستحيي من فعلِه في الملأ، إلا ما لا يحظرُه الشرعُ والعقلُ ولا يكون إلا في الخلوةِ، كالجماعِ والتخلّي ونحوُ ذلك.

- **الدرجة الثانية**: المروءةُ مع الخَلْقِ، بأن يستعملَ معهم شروطَ الأدبِ والحياءِ، والخلقِ الجميلِ، ولا يُظهِرُ لهم ما يكرهُه هو مِن غيرِه لنفسِه، وليتخذ الناسَ مرآةً لنفسه، فكل ما كرهَه ونفرَ عنه من قولٍ أو فعلٍ أو خلُقٍ فليجتنِبْه، وما أحبَّه من ذلك واستحسنَهُ فليفعَلْه.

- **الدرجة الثالثة**: المروءةُ مع الحقِّ سبحانه، بالاستحياءِ مِن نظرِهِ إليك، واطلاعِه عليك في كلِّ لحظةٍ ونَفَسٍ، وإصلاحُ عيوبِ نفسك جهدَ الإمكانِ.

[منزلة الأدب]

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، قال ابن عباس وغيره: أدِّبُوهم وعَلِّمُوهم.

وهذه اللفظةُ مؤذنةٌ بالاجتماعِ، فالأدبُ: اجتماعُ خصالِ الخيرِ في العبدِ، ومنه المأدبةُ، وهي الطعامُ الذي يجتمعُ عليه الناسُ.

وعلم الأدب: هو علمُ إصلاحِ اللسانِ والخطابِ، وإصابةِ مواقعه، وتحسينِ ألفاظِه، وصيانتِه عن الخطأِ والخلل، وهو شعبةٌ من الأدبِ العام. والله أعلم.

فصل [أنواع الأدب]

والأدبُ ثلاثةُ أنواعٍ: أدبٌ مع الله سبحانه، وأدبٌ مع رسولِه ﷺ، وأدبٌ مع خَلْقِهِ:

- **فالأدبُ مع الله** ثلاثةُ أنواع:

أحدها: صيانةُ معاملتِه أن يشوبَها بنقيصةٍ.

الثاني: صيانةُ قلبِه أن يلتفتَ إلى غيره.

الثالث: صيانةُ إرادتِه أن تتعلقَ بما يمقتُك عليه.

وقال يحيى بن معاذ: مَن تأدَّبَ بأدبِ الله صار من أهلِ محبة الله.

وقال ابن مبارك: نحن إلى قليلٍ من الأدب أحوجُ منا إلى كثيرٍ من العلم.

وسئل الحسن البصري رحمه الله عن أنفعِ الأدب؟ فقال: التفقهُ في الدين، والزهدُ في الدنيا، والمعرفةُ بما لله عليك.

[أحوال الرسل مع الأدب]

وتأمَّل أحوالَ الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - مع الله، وخطابَهم وسؤالَهم، كيف تجدُها كلَّها مشحونةً بالأدب قائمةً به:

- قال المسيحُ عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦]، ولم يقل: لم أَقُلْه. وفرقٌ بين الجوابين في حقيقةِ الأدب.

- وكذلك قولُ إبراهيمَ الخليلِ ﷺ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٠]، ولم يقل: وإذا أمرضَني؛ حفظًا للأدب مع الله.

- وكذلك قولُ الخضرِ عليه السلام في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ولم يقل: فأرادَ ربُّك أن أعيبَها. وقال في الغلامَينِ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

- وألطفُ مِن هذا قولُ موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، ولم يقل: أطعِمْني.

- وقولُ آدمَ عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولم يقل: رب قَدَرْتَ عليَّ وقَضَيْتَ عليَّ.

- وقولُ أيوبَ عليه السلام: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، ولم يقل: فعافِني واشفِني.

ولهذا لم يكن كمالُ هذا الخلُقِ إلا للرسلِ والأنبياءِ صلوات الله وسلامه عليهم.

[حقيقة الأدب]

وحقيقةُ الأدبِ: استعمالُ الخلُقِ الجميلِ؛ ولهذا كان الأدبُ: استخراجَ ما في الطبيعة من الكمالِ مِن القوةِ إلى الفعل، قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]، خصَّ بالفلاحِ مَن زكَّاها فنمَّاها وعلَّاها ورفعَها بآدابِه التي أدَّب بها رسلَه وأنبياءَه وأولياءَه، وهي التقوى، ثم حكَمَ بالشقاءِ على من دسَّاها فأخفاها وحقرَها وصغرَها وقمعَها بالفجورِ. والله سبحانه وتعالى أعلم.

[فصل أدب رسولنا صلى الله عليه وسلم]

قولُه تعالى عن نبيه ﷺ حين أَراهُ ما أراه: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] وصفٌ لأدبِه ﷺ في ذلك المقامِ، إذ لم يلتفِتْ جانبًا، ولا تجاوَزَ ما رآه، وهذا كمالُ الأدبِ، والإخلالُ به أن يلتفتَ الناظرُ عن يمينِه وعن شمالِه، أو يتطلعَ أمامَ المنظورِ؛

فالالتفاتُ زيغٌ، والتطلعُ إلى ما أمام المنظور طغيانٌ ومجاوزةٌ، فكمالُ إقبالِ الناظر على المنظور ألَّا يصرفَ بصرَه عنه يمنةً ولا يسرةً، ولا يتجاوزَه. هذا معنى ما حصلتُه عن شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه.

وفي هذه الآيةِ أسرارٌ عجيبةٌ، وهي من غوامضِ الآدابِ اللائقة بأكملِ البشر ﷺ: تواطأَ هناك بصرُه وبصيرتُه وتوافقَا وتصادقَا فيما شاهدَه بصرُه، فالبصيرةُ مواطئةٌ له، وما شاهدَتْه بصيرتُه فهو أيضا حقٌّ مشهودٌ بالبصرِ، فتواطأَ في حقِّه مشهدُ البصرِ والبصيرةِ، وهذا غايةُ الكمالِ والأدبِ مع الله الذي لا يلحقُه فيه سواه؛ فإن عادةَ النفوسِ إذا أُقيمَتْ في مقامٍ عالٍ رفيعٍ أن تتطلعَ إلى ما هو أعلى منه وفوقَه.

فصل [من الأدب مع الله]

والأدبُ هو الدينُ كلُّه: فإن سترَ العورة من الأدب، والوضوءَ وغسلَ الجنابة من الأدب، والتطهرَ من الخبث من الأدب؛ حتى يقفَ بين يدي الله طاهرًا؛ ولهذا كانوا يستحبُّون أن يتجملَ الرجلُ في صلاتِه للوقوفِ بين يدي ربه.

ومن الأدبِ: نهي النبيِّ ﷺ المصلِّي أن يرفعَ بصرَه إلى السماء.

ومن الأدبِ مع الله: ألَّا يستقبلَ بيتَه ولا يستدبرَه عند قضاءِ الحاجة.

ومن الأدبِ مع الله في الوقوفِ بين يديه في الصلاة: وضعُ اليمنى على اليسرى حالَ قيامِ القراءة، ولا ريبَ أنه من أدبِ الوقوف بين يدي الملوك والعظماء، فعظيمُ العظماء أحقُّ به.

وأدبُه في استماع القراءة: أن يلقيَ السمعَ وهو شهيد.

وأدبُه في الركوع: أن يستويَ ويعظمَ الله تعالى، حتى لا يكونَ في قلبِه شيءٌ أعظمُ منه، ويتضاءلُ ويتصاغرُ في نفسه، حتى يكونَ أقلَّ من الهَبَاءِ.

والمقصودُ: أن الأدبَ مع الله تبارك وتعالى: هو القيامُ بدينه، والتأدبُ بآدابِه ظاهرًا وباطنًا.

ولا يستقيمُ لأحدٍ قطُّ الأدبُ مع الله إلا بثلاثةِ أشياء:

- معرفتُه بأسمائِه وصفاتِه.
- ومعرفتُه بدينِه وشرعِه، وما يحبُّ وما يكرهُ.
- ونفسٌ مستعدةٌ قابلةٌ لينةٌ، متهيئةٌ لقبولِ الحقِّ علمًا وعملًا وحالًا. والله المستعان.

فصل [الأدب مع الرسول ﷺ]

وأمَّا الأدبُ مع الرسولِ ﷺ فالقرآنُ مملوءٌ به، فرأسُ الأدب معه: كمالُ التسليمِ له، والانقيادُ لأمرِه، وتلقِّي خبرِه بالقبولِ والتصديق، دون أن يحمِّلَه مُعارضةَ خيالٍ باطل يسمِّيه معقولًا، أو يحمِّلَه شبهةً أو شكًّا، أو يقدِّمَ عليه آراءَ الرجال، وزُبالاتِ أذهانِهم، فيوحِّدُه بالتحكيمِ والتسليم، والانقيادِ والإذعان، كما وحَّدَ المُرْسِلَ سبحانه وتعالى بالعبادةِ والخضوع والذل، والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيدُ المُرْسِلِ، وتوحيدُ متابعةِ الرسولِ.

ومن الأدبِ مع الرسول ﷺ: ألَّا يتقدَّمَ بين يديه بأمرٍ ولا نهي، ولا إذنٍ ولا تصرفٍ، حتى يأمرَ هو وينهى ويأذنُ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

ومن الأدبِ معه: ألَّا تُرفعَ الأصواتُ فوقَ صوتِه؛ فإنه سببٌ لحبوطِ الأعمال، فما الظنُّ برفع الآراءِ ونتائجِ الأفكار على سنتِه وما جاء به؟! أترى ذلك موجِبًا لقبولِ الأعمالِ ورفعُ الصوت فوقَ صوتِه موجبٌ لحبوطِها؟!

ومن الأدبِ معه: ألَّا يجعلَ دعاءَه كدعاءِ غيرِه، قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

ومن الأدبِ معه: أنهم إذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ - من خطبةٍ، أو جهاد، أو رباط - لم يذهَبْ أحدٌ منهم مذهبًا في حاجته حتى يستأذنَه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢].

ومن الأدبِ معه: ألَّا يستشكلَ قولَه، بل تُستشكلُ الآراءُ لقوله، ولا يُعارضُ نصُّه بقياس، بل تُهدرُ الأقيسةُ وتلقَى لنصوصِه، ولا يحرَّفُ كلامُه عن حقيقته لخيالٍ يسمِّيه أصحابُه معقولًا، نعم هو مجهولٌ، وعن الصوابِ معزولٌ، ولا يوقفُ قبولُ ما جاء به ﷺ على موافقةِ أحدٍ، فكلُّ هذا من قلةِ الأدب معه ﷺ، وهو عينُ الجرأة!

فصل [الأدب مع الخلق]

وأمَّا الأدبُ مع الخلقِ فهو: معاملتُهم - على اختلافِ مراتبِهم - بما يليقُ بهم. فلكلِّ مرتبةٍ أدبٌ.

فمع الوالدينِ أدبٌ خاص، وللأبِّ منهما أدبٌ هو أخصُّ به، ومع العالِمِ أدبٌ آخرُ، ومع السلطانِ أدبٌ يليقُ به، وله مع الأقرانِ أدبٌ يليقُ بهم، ومع الأجانبِ أدبٌ غيرُ أدبِه مع أصحابِه ذوي أنسِه، ومع الضيفِ أدبٌ غيرُ أدبِه مع أهل بيته.

ولكلِّ حالٍ أدبٌ: فللأكلِ آدابٌ، وللشربِ آدابٌ، وللركوبِ والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آدابٌ، وللبولِ آدابٌ، وللكلامِ آداب، وللسكوتِ والاستماع آدابٌ.

وأدبُ المرءِ: عنوانُ سعادتِه وفلاحه.

وقلةُ أدبِه: عنوانُ شقاوتِه وبواره.

فما استُجلِبَ خيرُ الدنيا والآخرة بمثلِ الأدبِ، ولا استُجلِبَ حرمانُهما بمثلِ قلةِ الأدبِ، فانظُرْ إلى الأدبِ مع الوالدَينِ كيف نجَّى صاحبَه مِن حبسِ الغارِ حين أطبقَتْ عليهم الصخرةُ، وتأمَّل أحوالَ كلِّ شقيٍّ ومغترٍّ ومدبرٍ كيف تجدُ قلةَ الأدب هي التي ساقَتْه إلى الحرمانِ!

[منزلة اليقين]

وهو من الإيمانِ بمنزلةِ الروحِ من الجسد، وبه تفاضَلَ العارفون، وفيه تنافَسَ المتنافسون، وإليه شمَّرَ العاملون.

وإذا تزوجَ الصبرُ باليقين وُلِدَ بينهما حصولُ الإمامةِ في الدين، قال الله تعالى - وبقولِه يهتدي المهتدون -: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

وخصَّ سبحانه أهلَ اليقين بالانتفاعِ بالآياتِ والبراهين، فقال - وهو أصدق القائلين -: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وخصَّ أهلَ اليقين بالهدى والفلاحِ من بين العالمين، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٤ - ٥].

فاليقينُ روحُ أعمالِ القلوب التي هي أرواحُ أعمالِ الجوارح، وهو حقيقةُ الصديقيةِ، وهو قطبُ هذا الشأنِ الذي عليه مداره.

واليقينُ قرينُ التوكلِ؛ ولهذا فُسِّرَ التوكلُ بقوةِ اليقين، والصوابُ أن التوكلَ ثمرتُه ونتيجتُه؛ ولهذا حَسُنَ اقترانُ الهدى به.

قال الله تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩] فالحق: هو اليقين، وقالت رسل الله: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢].

ومتى وصلَ اليقينُ إلى القلبِ امتلأَ نورًا وإشراقًا، وانتفَى عنه كلُّ ريبٍ وشكٍّ وسخطٍ، وهمٍّ وغمٍّ، فامتلأَ محبةً لله، وخوفًا منه ورضًا به، وشكرًا له، وتوكلًا عليه، وإنابةً إليه، فهو مادةُ جميعِ المقامات والحاملُ لها.

واختُلِفَ فيه: هل هو كسبيٌّ، أو موهبيٌّ؟

والتحقيقُ: أنه كسبيٌّ باعتبار أسبابِه، موهبيٌّ باعتبار نفسِه وذاته.

وقال الجنيد: اليقينُ هو استقرارُ العلمِ الذي لا ينقلبُ ولا يحولُ، ولا يتغيرُ في القلبِ.

[منزلة الذكر]

وهي منزلةُ القومِ الكبرى التي منها يتزوَّدُون، وفيها يتَّجِرُون، وإليها دائمًا يتردَّدون.

والذكرُ منشورُ الولايةِ الذي مَن أُعطيه اتصلَ، ومن مُنعه عُزِلَ، وهو قوتُ قلوبِ القوم الذي متى فارقَها صارت الأجسادُ لها قبورًا، وعمارةُ ديارِهم التي إذا تعطَّلَتْ عنه صارت بورًا، وهو سلاحُهم الذي يقاتِلون به قطاعَ الطريق، وماؤُهم الذي يطفِئون به التهابَ الطريق، ودواءُ أسقامِهم الذي متى فارقَهم انتكسَتْ منهم القلوبُ، والسببُ الواصل والعلاقةُ التي كانت بينهم وبين علامِ الغيوبِ.

وفي كلِّ جارحةٍ مِن الجوارحِ عبوديةٌ مؤقتةٌ، والذكرُ عبوديةُ القلب واللسان وهي غير مؤقتةٍ، بل هم مأمورون بذكرِ معبودِهم ومحبوبِهم في كلِّ حالٍ: قيامًا، وقعودًا، وعلى جنوبِهم.

وهو روحُ الأعمالِ الصالحة، فإذا خلا العملُ عن الذكرِ كان كالجسد الذي لا روحَ فيه. والله أعلم.

فصل [أوجه الذكر في القرآن]

وهو في القرآنِ على عشرةِ أوجهٍ:

الأول: الأمرُ به مطلقًا ومقيدًا.

الثاني: النهيُ عن ضده من الغفلةِ والنسيان.

الثالث: تعليقُ الفلاح باستدامتِه وكثرته.

الرابع: الثناءُ على أهله، والإخبارُ بما أعدَّ الله لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس: الإخبارُ عن خسران مَن لَـهَـا عنه بغيره.

السادس: أنه سبحانه جعلَ ذكرَه لهم جزاءً لذكرِهم له.

السابع: الإخبارُ أنه أكبرُ من كل شيء.

الثامن: أنه جعلَه خاتمةَ الأعمال الصالحة كما كان مفتاحَها.

التاسع: الإخبارُ عن أهله بأنهم هم أهلُ الانتفاع بآياته، وأنهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنه جعلَه قرينَ جميعِ الأعمالِ الصالحة وروحَها، فمتى عدمَتْهُ كانت كالجسدِ بلا روحٍ.

فصل [فضل أهل الذكر]

والذاكرون: هم أهلُ السبق، فعن أبي هريرة ﵁ قال: «كان رسول الله يسيرُ في طريقِ مكةَ، فمرَّ على جبلٍ يُقالُ له جُمْدَانُ، فقال: **سِيروا، هذا جُمْدَانُ، سبقَ المُفرِّدون.** قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: **الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات**»[1].

(١) مسلم (٢٦٧٦).

وقال ﷺ: «**لا يقعدُ قومٌ يذكرون اللهَ إلا حفَّتْهم الملائكةُ وغشيَتْهم الرحمةُ ونزلَتْ عليهم السكينةُ وذكَرَهم الله فيمن عندَه**»(١).

ويكفي في شرفِ الذكرِ: أن الله يُباهي ملائكتَه بأهلِه كما في صحيح مسلم عن معاوية رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ: خرجَ على حلقةٍ من أصحابِه فقال: **ما أجلسَكم؟** قالوا: جلسنا نذكرُ الله ونحمدُه على ما هدانا للإسلامِ ومنَّ به علينا. قال: **آلله ما أجلسَكم إلا ذلك؟** قالوا: آلله ما أجلسَنا إلا ذلك. قال: **أما إنِّي لم أستحلِّفْكم تهمةً لكم، ولكن أتاني جبريلُ فأخبرني: أن الله يُباهي بكم الملائكةَ**»(٢).

وسأل أعرابيٌّ رسولَ الله ﷺ: «أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ فقال: **أن تفارِقَ الدنيا ولسانُك رطبٌ من ذكر الله**»(٣)، وقال له رجلٌ: «إن شرائعَ الإسلام قد كثُرَتْ عليَّ فمُرْني بأمر أتشبثُ به. فقال: **لا يزالُ لسانُك رطبًا من ذكر الله**»(٤).

وفي الصحيحين(٥) من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**مثلُ الذي يذكرُ ربَّه والذي لا يذكرُه: مثل الحيِّ والميت**»، ولفظ مسلم: «**مثلُ البيتِ الذي يُذْكَرُ الله فيه والبيتِ الذي لا يُذْكَرُ الله فيه: مثلُ الحيِّ والميت**»، فجعلَ بيتَ الذاكر بمنزلة بيتَ الحيِّ، وبيتَ الغافل بمنزلة بيتِ الميتِ وهو القبرُ.

[أنواع الذكر]

والذكرُ ثلاثةُ أنواع:

- ذكرُ الأسماءِ والصفات ومعانيها، والثناءُ على الله بها، وتوحيدُ الله بها.

---

(١) مسلم (٢٦٩٩، ٢٧٠٠).
(٢) مسلم (٢٧٠١).
(٣) أبو نعيم في الحلية (٦/ ١١).
(٤) الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣).
(٥) البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩).

- وذكرُ الأمرِ والنهيِ والحلالِ والحرامِ.

- وذكر الآلاءِ والنعماءِ والإحسانِ والأيادي.

وأنه ثلاثةُ أنواع أيضًا:

- ذكرٌ يتواطأُ عليه القلبُ واللسانُ، وهو أعلاها.

- وذكرٌ بالقلبِ وحدَه وهو في الدرجة الثانية.

- وذكرٌ باللسانِ المجردِ، وهو في الدرجة الثالثة.

[منزلة الإحسان]

وهي لبُّ الإيمانِ، وروحُه وكمالُه، وهذه المنزلةُ تجمعُ جميعَ المنازل، فجميعُها منطويةٌ فيها، وكلُّ ما قيل من أولِ الكتاب إلى هاهنا فهو من الإحسانِ.

[منزلة العلم]

وهذه المنزلةُ إن لم تصحَبْ السالكَ من أول قدمٍ يضعُه في الطريق إلى آخرِ قدم ينتهي إليه - فسلوكُه على غير طريقٍ، وهو مقطوعٌ عليه طريقُ الوصول، مسدودٌ عليه سبلُ الهدى والفلاح، مغلقةٌ عنه أبوابُها، وهذا إجماعٌ من الشيوخ العارفين، ولم ينهَ عن العلمِ إلا قطاعُ الطريق منهم، ونوابُ إبليس وشُرَطُه.

قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رَحِمَهُ اللَّهُ: الطرقُ كلها مسدودةٌ على الخلقِ إلا على مَن اقتفَى آثارَ الرسول ﷺ.

وقال: مَن لم يحفظِ القرآنَ ويكتبِ الحديثَ لا يُقتدَى به في هذا الأمرِ؛ لأن علمَنا مقيدٌ بالكتاب والسنة.

وقال أبو عمرو بن نجيد: كلُّ حالٍ لا يكون عن نتيجةِ علمٍ فإن ضررَه على صاحبِه أكثرُ من نفعِه.

[شرف العلم وفضله]

وهو تركةُ الأنبياء وتراثُهم، وأهلُه عصبتُهم ووُرَّاثُهُم، وهو حياةُ القلوبِ، ونورُ البصائر، وشفاءُ الصدور، ورياضُ العقول، ولذةُ الأرواح، وأنسُ المستوحشين، ودليلُ المتحيرين.

وهو الميزانُ الذي به تُوزنُ الأقوالُ والأعمال والأحوال، وهو الحاكمُ المفرِّق بين الشكِّ واليقينِ، والغي والرشاد، والهدى والضلال.

به يُعرفُ اللهُ ويُعبدُ، ويُذكرُ ويُوحَّدُ، ويُحمدُ ويُمجَّدُ.

وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقِه وصل إليه الواصلون. ومن بابِه دخلَ عليه القاصدون.

به تُعرفُ الشرائعُ والأحكام، ويَتميزُ الحلالُ من الحرام.

وبه توصلُ الأرحامُ وبه تُعرفُ مراضِي الحبيبِ، وبمعرفتِها ومتابعتِها يوصلُ إليه من قريبٍ.

وهو إمامٌ والعملُ مأمومٌ، وهو قائدٌ والعملُ تابعٌ.

وهو الصاحبُ في الغربةِ، والمحدثُ في الخلوة، والأنيسُ في الوحشة، والكاشفُ عن الشبهة، والغنَى الذي لا فقرَ على مَن ظفرَ بكنزه، والكنفُ الذي لا ضيعةَ على من آوى إلى حرزِه.

مذاكرتُه تسبيحٌ، والبحثُ عنه جهادٌ، وطلبُه قربةٌ، وبذلُه صدقةٌ، ومدارستُه تعدلُ بالصيام والقيام، والحاجةُ إليه أعظمُ منها إلى الشراب والطعام.

قال الإمام أحمد ﷺ: الناسُ إلى العلمِ أحوجُ منهم إلى الطعامِ والشراب؛ لأن الرجلَ يحتاجُ إلى الطعام والشراب في اليوم مرةً أو مرتين، وحاجتُه إلى العلم بعدد أنفاسِه.

واستشهدَ اللهُ ﷻ بأهلِ العلم على أجلِّ مشهودٍ به وهو التوحيدُ، وقرنَ شهادتَهم بشهادتِه وشهادةِ ملائكته، وفي ضمن ذلك تعديلُهم؛ فإنه سبحانه وتعالى لا يستشهِدُ بمجروحٍ.

وهو حجةُ الله في أرضِه، ونورُه بين عبادِه، وقائدُهم ودليلُهم إلى جنته، ومُدْنيهم من كرامتِه.

ويكفي في شرفِه: أن فضلَ أهلِه على العباد كفضلِ القمرِ ليلةَ البدر على سائر الكواكبِ، وأن الملائكةَ لتضعُ لهم أجنحتَها، وتظلُّهم بها، وأن العالمَ يستغفرُ له مَن في السموات ومَن في الأرض، حتى الحيتانُ في البحرِ، وحتى النملُ في جُحْرِها، وأن الله وملائكتَه يصلُّون على معلمي الناسِ الخيرَ.

ولقد رَحَلَ كليمُ الرحمن موسى بن عمران - عليه الصلاة والسلام - في طلب العلمِ هو وفتاه، حتى مسَّهما النصبُ في سفرهما في طلبِ العلم، حتى ظفرَ بثلاثِ مسائلَ، وهو مِن أكرمِ الخلق على الله وأعلمِهم به.

وأمر اللهُ رسولَه أن يسألَه المزيدَ منه فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وحرَّم اللهُ صيدَ الجوارحِ الجاهلةِ، وإنما أباح للأمَّة صيدَ الجوارحِ العالمةِ، فهكذا جوارحُ الإنسانِ الجاهلِ لا يجدي عليه صيدُها مِن الأعمال شيئًا. والله سبحانه وتعالى أعلم.

[منزلة الحكمة]

قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

الحكمةُ في كتابِ الله نوعان: مفردةٌ، ومقترنةٌ بالكتاب.

- **فالمفردةُ**: فسِّرَت بالنبوةِ، وفسِّرَت بعلمِ القرآن.
- **وأمَّا الحكمةُ المقرونة بالكتاب**: فهي السنةُ.

وأحسنُ ما قيل في الحكمة قولُ مجاهد ومالك إنها: معرفةُ الحقِّ والعملُ به، والإصابةُ في القولِ والعملِ. وهذا لا يكون إلا بفهمِ القرآنِ، والفقهِ في شرائعِ الإسلامِ، وحقائقِ الإيمانِ.

والحكمةُ حكمتان: علميةٌ، وعمليةٌ.

- **فالعلميةُ**: الاطلاعُ على بواطنِ الأشياء، ومعرفةُ ارتباطِ الأسباب بمسبباتها، خلقًا وأمرًا، قدرًا وشرعًا.
- **والعمليةُ**: وضعُ الشيءِ في موضعه.

فكلُّ نظامِ الوجود مرتبطٌ بهذه الصفةِ، وكلُّ خللٍ في الوجود وفي العبد فسببُه الإخلالُ بها، فأكملُ الناسِ أوفرُهم منها نصيبًا، وأنقصُهم وأبعدُهم عن الكمالِ أقلُّهم منها ميراثًا.

ولها ثلاثةُ أركان: العلمُ، والحلمُ، والأناةُ.

وآفاتُها وأضدادُها: الجهلُ، والطيشُ، والعجلةُ.

فلا حكمةَ لجاهلٍ، ولا طائشٍ، ولا عجولٍ. والله أعلم.

[منزلة التعظيم]

وهذه المنزلةُ تابعةٌ للمعرفةِ، فعلى قدرِ المعرفةِ يكونُ تعظيمُ الرب تعالى في القلبِ، وأعرفُ الناس به أشدُّهم له تعظيمًا وإجلالًا، وقد ذمَّ الله تعالى من لم يعظِّمْه حقَّ عظمتِه، ولا عرَفَه حقَّ معرفتِه، ولا وصَفَه حقَّ صفتِه، وأقوالُهم تدورُ على هذا.

فقال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣]، قال ابن عباس ومجاهد: لا ترجون لله عظمةً.

وقال سعيدُ بن جبير: ما لكم لا تعظِّمون الله حقَّ عظمتِه.

وقال الكلبي: لا تخافون لله عظمةً.

قال البغوي: والرجاءُ بمعنى المخوف، والوقارُ: العظمةُ، اسم من التوقير، وهو التعظيم.

وقال الحسن: لا تعرفون لله حقًّا، ولا تشكرون له نعمةً.

وقال ابن كيسان: لا ترجون في عبادةِ الله أن يثيبَكم على توقيرِكم إياه خيرًا.

وروحُ العبادة هو الإجلالُ والمحبةُ، فإذا تخلَّى أحدُهما عن الآخر فسدَتْ، فإذا اقترنَ بهذين الثناءُ على المحبوبِ المعظمِ فذلك حقيقةُ الحمد. والله سبحانه أعلم.

[منزلة السكينة]

هذه المنزلةُ من منازلِ المواهبِ، لا مِن منازلِ المكاسبِ، وقد ذكر الله سبحانه السكينةَ في كتابه في ستةِ مواضعَ.

الأول: قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

الثاني: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٢٦].

الثالث: قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠].

الرابع: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

السادس: قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الفتح: ٢٦].

وأصلُ السكينةِ هي الطمأنينةُ والوقارُ، والسكونُ الذي ينزلُه الله في قلبِ عبده عندَ اضطرابِه من شدةِ المخاوف، فلا ينزعجُ بعد ذلك لما يَرِدُ عليه، ويوجِبُ له زيادةَ الإيمان، وقوةَ اليقين والثبات.

ولهذا أخبرَ سبحانه عن إنزالِها على رسولِه ﷺ وعلى المؤمنين في مواضعِ القلقِ والاضطرابِ، كيوم الهجرةِ إذ هو وصاحبُه في الغارِ والعدوُّ فوقَ رءوسهم، لو نظَرَ أحدُهم إلى ما تحت قدميه لرآهما، وكيومِ حُنَيْنٍ حين ولَّوا مدبرين مِن شدة بأسِ الكفارِ، لا يلوي أحدٌ منهم على أحدٍ، وكيوم الحديبيةِ حين اضطربَتْ قلوبُهم من تحكمِ الكفار عليهم، ودخولِهم تحتَ شروطِهم التي لا تحملها النفوسُ، وحسبُك بضعف عمرَ رضي الله عنه عن حملِها - وهو عمرُ! - حتى ثبتَه اللهُ بالصدِّيقِ رضي الله عنه.

[منزلة الطمأنينة]

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

الطمأنينةُ: سكونُ القلبِ إلى الشيء، وعدمُ اضطرابِه وقلقِه، ومنه الأثرُ المعروفُ: «الصدقُ طمأنينةٌ، والكذب ريبةٌ»، أي: الصدق يطمئنُّ إليه قلبُ السامع ويجدُ عنده سكونًا إليه، والكذبُ يوجِبُ له اضطرابًا وارتيابًا.

[منزلة المحبة]

وهي المنزلةُ التي فيها تنافَسَ المتنافِسون، وإليها شَخَصَ العاملون، وإلى علمِها شمَّر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروحِ نسيمِها تروَّحَ العابدون.

فهي قوتُ القلوب، وغذاءُ الأرواح، وقرةُ العيون، وهي الحياةُ التي مَن حُرِمَها فهو مِن جملةِ الأموات، والنورُ الذي مَن فقدَهُ فهو في بحارِ الظلماتِ، والشفاءُ الذي مَن عدمَهُ حلَّت بقلبِه جميعُ الأسقام، واللذةُ التي من لم يظفَرْ بها فعيشُه كلُّه همومٌ وآلامٌ، وهي روحُ الإيمانِ والأعمال.

فصل [حد المحبة]

لا تحدُّ المحبةُ بحدٍّ أوضحَ منها، فالحدودُ لا تزيدها إلا خفاءً وجفاءً، فحدُّها وجودُها، ولا توصفُ المحبةُ بوصفٍ أظهرَ من المحبةِ، وإنما يتكلمُ الناسُ في أسبابِها وموجباتِها، وعلاماتها وشواهدها، وثمراتها وأحكامها، فحدودُهم ورسومُهم دارَتْ على هذه الستةِ، وتنوعَّتْ بهم العباراتُ، وكثُرَتْ الإشاراتُ، بحسب إدراك الشخصِ ومقامِه وحاله، ومِلْكِه للعبارةِ.

وهذه المادةُ تدورُ في اللغة على خمسةِ أشياء: الصفاءُ والبياضُ، العلوُّ والظهورُ، اللزومُ والثباتُ، اللبُّ، الحفظُ والإمساكُ.

ولا ريبَ أن هذه الخمسةَ من لوازمِ المحبةِ؛ فإنها صفاءُ المودة، وهيجانُ إرادات القلب للمحبوب، وعلوُّها وظهورها منه لتعلقِها بالمحبوبِ المرادِ، وثبوتُ إرادة

القلب للمحبوب، ولزومُها لزومًا لا تفارقُه، ولإعطاءِ المحبِّ محبوبَه لبَّه وأشرفَ ما عنده وهو قلبه، ولاجتماعِ عزماتِه وإراداته وهمومه على محبوبِه.

فصل في الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها

وهي عشرة:

أحدها: قراءةُ القرآن بالتدبرِ والتفهم لمعانيه وما أُريدَ به.

الثاني: التقربُ إلى الله بالنوافلِ بعد الفرائض.

الثالث: دوامُ ذكرِه على كل حال: باللسانِ، والقلب، والعمل، والحال.

الرابع: إيثارُ محابِّه على محابِّكَ عندَ غلبات الهوى، والتسنمُ إلى محابِّه وإن صعب المرتقَى.

الخامس: مطالعةُ القلبِ لأسمائِه وصفاته، ومشاهدتُها ومعرفتُها، وتقلبُه في رياضِ هذه المعرفة ومباديها.

السادس: مشاهدةُ برِّه وإحسانه وآلائه، ونعمِه الباطنة والظاهرة.

السابع: - وهو من أعجبها - انكسارُ القلبِ بكليته بين يدي الله تعالى.

الثامن: الخلوةُ به وقتَ النزول الإلهي؛ لمناجاتِه وتلاوةِ كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختمُ ذلك بالاستغفارِ والتوبة.

التاسع: مجالسةُ المحبين الصادقين، والتقاطُ أطايب ثمرات كلامِهم كما يُنتقَى أطايبُ الثمر، ولا تتكلمُ إلا إذا ترجَّحت مصلحةُ الكلام، وعلمتَ أن فيه مزيدًا لحالك، ومنفعةً لغيرك.

العاشر: مباعدةُ كل سبب يحولُ بين القلب وبين الله ﷻ.

فمِن هذه الأسبابِ العشرةِ وصل المحبون إلى منازلِ المحبة، ودخلُوا على الحبيبِ.

وملاكُ ذلك كله أمران: استعدادُ الروحِ لهذا الشأن، وانفتاحُ عينِ البصيرة. وبالله التوفيق.

فصل في مراتب المحبة

أولها: **العلاقةُ**، وسمِّيت علاقةً لتعلقِ القلب بالمحبوب.

الثانية: **الإرادةُ**، وهي ميلُ القلبِ إلى محبوبه وطلبُه له.

الثالثة: **الصبابةُ**، وهي انصبابُ القلبِ إليه، بحيث لا يملكه صاحبُه، كانصباب الماء في الحدورِ.

الرابعة: **الغرامُ**، وهو الحبُّ اللازم للقلبِ، الذي لا يفارقُه، بل يلازمُه كملازمة الغريمِ لغريمِه.

الخامسة: **الودادُ**، وهو صفوُ المحبة، وخالصُها ولبُّها.

السادسة: **الشغفُ**، يقال: شغف بكذا فهو مشغوفٌ به وقد شغفه المحبوبُ، أي: وصلَ حبُّه إلى شغافِ قلبه.

السابعة: **العشقُ**، وهو الحبُّ المفرطُ الذي يُخافُ على صاحبه منه.

الثامنة: **التتيمُ**، وهو التعبدُ والتذللُ، يقال: تيَّمَهُ الحبُّ، أي: ذلله وعبَّدَه، وتيمُ الله: عبدُ الله.

التاسعة: **التعبدُ**، وهو فوقَ التتيمِ، فإن العبدَ هو الذي قد ملكَ المحبوبُ رقَّهُ، فلم يبقَ له شيءٌ من نفسه ألبتةَ، بل كلُّه عبدٌ لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا، وهذا هو حقيقةُ العبودية، ومن كمَّل ذلك فقد كمَّل مرتبتَها.

ولما كمَّل سيدُ ولدِ آدمَ هذه المرتبةَ وصفَه الله بها في أشرفِ مقاماتِه مقامِ الإسراءِ، كقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ومقامِ الدعوة، كقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ومقامِ التحدي، كقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وبذلك استحقَّ التقديمَ على الخلائقِ في الدنيا والآخرة.

العاشرة: مرتبةُ الخلةِ التي انفرَدَ بها الخليلان إبراهيمُ ومحمدٌ صلى الله عليهما وسلم، كما صحَّ عنه أنه قال: «**إن الله اتخذني خليلًا كما اتخَذَ إبراهيمَ خليلًا**»[١].

والخلةُ: هي المحبةُ التي تخلَّلَتْ روحَ المحبِّ وقلبَه، حتى لم يبقَ فيه موضعٌ لغيرِ المحبوبِ.

[منزلة الغيرة]

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وفي الصحيح عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أحدٌ أغيرَ من الله، ومن غيرتِه حرَّمَ الفواحشَ ما ظهَرَ منها وما بطَنَ، وما أحدٌ أحبَّ إليه المدحُ مِن الله، ومِن أجلِ ذلك أثنى على نفسِه، وما أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله، مِن أجلِ ذلك أرسَلَ الرسلَ مبشرين ومنذرين**»[٢].

والغيرةُ نوعان: غيرةٌ من الشيء، وغيرةٌ على الشيء:

- **والغيرةُ من الشيء**: هي كراهةُ مزاحمتِه ومشاركتِه لك في محبوبك.

- **والغيرةُ على الشيء**: هي شدةُ حرصِك على المحبوبِ أن يفوزَ به غيرُك دونَك، أو يشارِكَك في الفوز به.

---

(١) مسلم (٥٣٢).

(٢) البخاري (٤٦٣٤، ٤٦٣٧، وأخر)، ومسلم (٢٧٦٠).

ثم الغيرةُ أيضا نوعان: غيرةُ الحقِّ تعالى على عبده، وغيرةُ العبد لربِّه لا عليه.

- **فأمَّا غيرةُ الربِّ على عبدِه:** فهي ألَّا يجعلَه للخلق عبدًا، بل يتخذُه لنفسِه عبدًا، فلا يجعلُ له فيه شركاءَ متشاكسين، بل يفرِدْه لنفسِه، ويضنُّ به على غيرِه، وهذه أعلى الغيرتَيْنِ.
- **وغيرةُ العبدِ لربِّه**، نوعان أيضا: غيرةٌ من نفسِه، وغيرةٌ من غيرِه.

فالتي من نفسِه: ألَّا يجعلَ شيئًا من أعمالِه وأقواله وأحواله وأوقاته وأنفاسه لغيرِ ربِّه.

والتي من غيرِه: أن يغضبَ لمحارمه إذا انتهكَها المنتهكون، ولحقوقِه إذا تهاونَ بها المتهاوِنون.

وأمَّا الغيرةُ على الله: فأعظمُ الجهل وأبطلُ الباطل، وصاحبُها من أعظمِ الناس جهلًا! وربما أدَّت بصاحبها إلى معاداتِه وهو لا يشعرُ، وإلى انسلاخِه من أصلِ الدين والإسلام، كما حُكِيَ عن واحد من مشهوري الصوفية أنه قَال: لا أستريحُ حتى لا أرى مَن يذكرُ اللهَ. يعني: غيرةً عليه من أهلِ الغفلة وذكرهم.

وغيرةُ العبدِ من نفسِه أهمُّ من غيرته من غيرِه؛ فإنك إذا غرتَ من نفسِك صحَّتْ لك غيرتُك لله من غيرِك، وإذا غرتَ له من غيرِك ولم تغَرْ من نفسك فالغيرةُ مدخولةٌ معلولةٌ ولابدَّ، فتأمَلْها وحقِّقِ النظرَ فيها.

[منزلة الشوق]

قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ ﴾ [العنكبوت: ٥]، قيل: هذا تعزيةٌ للمشتاقين، وتسليةٌ لهم، أي: أنا أعلمُ أن مَن كان يرجو لقائِي فهو مشتاقٌ إليَّ، فقد أجلتُ له أجلًا يكونُ عن قريبٍ، فإنه آتٍ لا محالةَ، وكلُّ آتٍ قريبٌ.

وفيه لطيفةٌ أخرى، وهي تعليلُ المشتاقين برجاءِ اللقاءِ، وقد كان النبي ﷺ يقولُ في دعائه: «أسألُكَ لذةَ النظرِ إلى وجهِك، والشوقَ إلى لقائِك»(١).

والشوقُ أثرٌ من آثارِ المحبة، وحُكْمٌ من أحكامها، فإنه سفرُ القلبِ إلى المحبوب في كلِّ حالٍ.

وقيل: هو اهتياجُ القلوبِ إلى لقاءِ المحبوب.

وقيل: هو احتراقُ الأحشاءِ، ومنها يتهيجُ ويتولدُ، ويُلهِبُ القلوبَ ويُقطِّعُ الأكبادَ.

والمحبةُ أعلى منه؛ لأن الشوقَ عنها يتولَّدُ، وعلى قدرِها يقوَى ويضعفُ.

[منزلة السرور]

الفرحُ: لذةٌ تقعُ في القلبِ بإدراكِ المحبوبِ، ونيلِ المشتهَى؛ فيتولَّدُ من إدراكِه حالةٌ تسمَّى الفرحَ والسرورَ.

وذكر سبحانه الأمرَ بالفرحِ بفضله وبرحمته عقيبَ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧](٢)، ولا شيءَ أحقُّ أن يفرحَ العبدُ به مِن فضلِ الله ورحمتِه، التي تتضمَّنُ الموعظةَ وشفاءَ الصدور من أدوائِها بالهدى والرحمة.

وقد جاء الفرحُ في القرآن على نوعين: مطلقٍ، ومقيدٍ.

- **فالمطلقُ**: جاء في الذمِّ، كقوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

---

(١) النسائي (١٣٠٥، ١٣٠٦)، وأحمد (٣٠/ ٢٦٤).

(٢) قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨].

- والمقيدُ: نوعان أيضا:

مقيدٌ بالدنيا، يُنسي صاحبَه فضلَ الله ومنتَه، فهو مذمومٌ، كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

والثاني: مقيدٌ بفضلِ الله وبرحمتِه، وهو نوعان أيضا: فضلٌ ورحمةٌ بالسبب، وفضلٌ بالمسبَّبِ:

فالأول: كقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

والثاني: كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

فالفرحُ بالله وبرسولِه وبالإيمانِ وبالسنةِ، وبالعلمِ وبالقرآنِ من أعلى مقاماتِ العارفين، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦].

فالفرحُ بالعلمِ والإيمانِ والسنةِ دليلٌ على تعظيمِه عندَ صاحبِه، ومحبتِه له، وإيثارِه له على غيره.

والفرحُ صفةُ كمال؛ ولهذا يُوصفُ الربُّ تعالى بأعلى أنواعِه وأكملِها، كفرحِه بتوبةِ التائبِ أعظمَ من فرحةِ الواجدِ لراحلته التي عليها طعامُه وشرابُه في الأرضِ المهلكةِ بعد فَقْدِه لها واليأسِ من حصولِها.

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

المقدمة ٣
خطبة الكتاب ٥
فصل في اشتمال الفاتحة على أمهات المطالب العالية ٧
فصل في اشتمال الفاتحة على الصراط المستقيم ٩
فصل في اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل ١١
فصل في بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين شفاء القلوب وشفاء الأبدان ١٤
فصل في اشتمال الفاتحة على الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنحل، والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة ١٥
فصل في اشتمال الفاتحة على كلمتي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ١٦
فصل مراتب العبودية ٢٢
فصل في منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التي ينتقل فيها القلب منزلة منزلة في حال سيره إلى الله ٢٥
منزلة اليقظة ٢٥
منزلة الفكرة ٢٥
منزلة البصيرة ٢٥
منزلة القصد ٢٦
منزلة العزم ٢٦
منزلة المحاسبة ٢٦
منزلة التوبة ٢٧
منزلة الإنابة ٤٧
منزلة التذكر ٤٨
منزلة الاعتصام ٤٩
منزلة الفرار ٥٠
منزلة الرياضة ٥٠
منزلة الخوف ٥١
منزلة الإشفاق ٥٣

منزلة الخشوع ٥٣
منزلة الإخبات ٥٤
منزلة الزهد ٥٤
منزلة الورع ٥٦
منزلة التبتل ٥٨
منزلة الرجاء ٥٨
منزلة الرغبة ٦٠
منزلة الرعاية ٦٠
منزلة المراقبة ٦١
منزلة تعظيم حرمات الله ٦٢
منزلة الإخلاص ٦٢
منزلة الاستقامة ٦٤
منزلة التوكل ٦٥
منزلة التسليم ٧٠
منزلة الصبر ٧١
منزلة الرضا ٧٥
منزلة الشكر ٧٨
منزلة الحياء ٨٠
منزلة الصدق ٨٣
منزلة الإيثار ٨٥
منزلة الخُلُق ٨٨
منزلة التواضع ٩٩
منزلة المروءة ١٠١
منزلة الأدب ١٠٣
منزلة اليقين ١٠٩
منزلة الذكر ١١٠
منزلة الإحسان ١١٣
منزلة العلم ١١٣

منزلة الحكمة ١١٦
منزلة التعظيم.. ١١٧
منزلة السكينة.. ١١٧
منزلة الطمأنينة.. ١١٨
منزلة المحبة.. ١١٩
منزلة الغيرة.. ١٢٢
منزلة الشوق.. ١٢٣
منزلة السرور ١٢٤
فهــرس الموضوعات ١٢٦



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com





1

مكتبة الأسرة

وتحتوي على 6 كتب :

1. مختصر رياض الصالحين
2. هدي محمد ﷺ
3. مختصر حادي الأرواح
4. مختصر عدة الصابرين
5. مختصر الداء والدواء
6. مختصر الفوائد

2

مكتبة الأسرة

وتحتوي على 6 كتب :

1. مختصر الفصول في سيرة الرسول ﷺ
2. مختصر الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب
3. مختصر جامع العلوم والحكم
4. مختصر صيد الخاطر
5. مختصر لطائف المعارف
6. مختصر الكبائر

3

مكتبة الأسرة

وتحتوي على 6 كتب :

1. تفسير العشر الأخير من القرآن الكريم
2. مختارات من مختصر صحيح البخاري
3. أعلام السنة المنشورة
4. مختصر كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة
5. مختصر إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان
6. مختصر تحفة المودود بأحكام المولود

4

مكتبة الأسرة

وتحتوي على 6 كتب :

1. مختصر الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية
2. مختارات من مدارج السالكين
3. مختصر الأذكار من كلام سيد الأبرار
4. مختصر كتاب تلبيس إبليس
5. منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين
6. مختصر أدب الدنيا والدين



تطلب من

مدار الوطن للنشر


0112313018
0114792042


0112322096
0114723941

www.madaralwatan.com

مطابع الفسطاط الحديثة
al_fostat@yahoo.com